

مكتبة ومركز
فهد بن محمد بن نايف الدبوس
للتراث الأدبي - الكويت

دراسات أندلسية

تأليف

أ. فاضل خلف

دراسات أندلسية
تراثنا (١)
تأليف أ. فاضل خلف
الطبعة الأولى ٢٠١٢

دراسات أندلسية

فهرسة

مكتبة الكويت الوطنية أثناء النشر

810.96 خلف، فاضل .

دراسات أندلسية / فاضل خلف.- ط1 .- الكويت : رابطة الأدباء ، 2012

148 ص: خرائط ، صور؛ 24 سم .- (تراثنا؛1)

ردمك : 978-99906-71-38-4

1. الأدب العربي – الأندلس أ. العنوان ب.السلسلة

رقم الإيداع :462 / 2012

ردمك : 978-99906-71-38-4

مكتبة ومركز فهد بن محمد بن نايف الدبوس

للتراث الأدبي - الكويت

ص. ب : 6005 حولي - الكويت

E-mail : fahad_aldabbos@hotmail.com



مكتبة ومركز

فهد بن محمد بن نايف الدبوس

للتراث الأدبي – الكويت

دراسات أندلسية

تأليف

أ. فاضل خلف

الطبعة الأولى

٢٠١٢

عزيزي الأخ فاضل خلف حفظه الله

تحياتي الأخوية وأشواقي الصادقة

تلقيت في بريد الوزارة كتابكم القيم (دراسات كويتية) فتصفحته وتمتعت بأحاديثه المفيدة المشوقة مصاغة بأسلوب منطلق عفوي يغرى بالاستزادة من القراءة ويشد القارىء إلى الاستمرار في متابعة الموضوع والانتقال إلى غيره بعد الفراغ منه.

وهذا ما حصل لي بالذات فقد كنت أحوم على موضوعاته المختلفة الشائقة تحويم الفراش على الزهور اليانعة المختلفة. تهانينا لك على هذا الكتاب الأدبي الموفق وفي انتظار كتابك التالي (دراسات أندلسية) لنرتشف من منهله العذب الممتع والمفيد، راجين لك التوفيق والاستمرار في الانتاج الأدبي. مرة أخرى شكرا على هديتك الرائعة ومتعك الله بالصحة لتمتعنا بمزيد من الاطلاع على كنوزك الأدبية والله يرعاك.

سلامي إلى الأهل والإخوان جميعا ودمتم بخير .

الكويت ٤/ ٩/ ١٩٦٩

المخلص

علي زكريا الأنصاري

رسالةٌ من الأستاذ عَلي زكريا الأنصاري إلى المؤلف مُؤَرخَةٌ بتاريخ ١٩٦٩/٩/٤م يترقبُ صدورَ كتاب (دراساتٌ أندلسيةٌ) بكلِّ شوقٍ ويَسَّرَ الله طباعتَهُ بعدَ ثلاثٍ وأربعين سنة

تصدير

الحمد لله وكفى، وسلام على عباده الذين اصطفى، وبعد:

حرصت رابطة الأدباء الكويتيين منذ نشأتها الأولى عام ١٩٦٥م، بحمل لواء الأدب في الكويت، ودأبت بإيصال صوتها إلى الجماهير بإقامة المواسم الثقافية، والأمسيات الشعرية والمؤتمرات والندوات في كل حين ومناسبة.

وجنباً إلى ذلك حرصت على طباعة الكتاب الأدبي وإبراز أدباء وأديبات الكويت على مر الأزمنة.

ونستذكر قول عاشق الكويت -كما أطلق على نفسه- الشاعر التونسي "محمد بن البشير المثلوثي:

ورابطة الأدب الكويتي زُرتُها   داراً سَمَت هَامَ السُهى والفرقَد

فيها عَرفَتُ من الكَرامِ كَواكِبا   يزهو الكُوَيتُ بمَجدِ ناديها النَّدي

هي رَوضَةُ الأدب التي خَلَدَت   فيها أزاهِرُ كُلِّ عِلمٍ سرمدي

والحمد لله الذي سخر للرابطة بأن تتعاون مع الأديب/ فهد الدبوس- صاحب مكتبة ومركز فهد الدبوس للتراث الأدبي- على طباعة كتب الأدب المنتقاة لأعضاء الرابطة على حساب مكتبة ومركز فهد الدبوس ضمن سلسلة (تراثنا) ولا يسعنا إلى أن نجزي جزيل الشكر لكل

من شارك وساهم في إصدار هذه السلسلة الأدبية وقدم خدمة لنا من نصيحة أو مشورة أو مساهمة فعالة.

ونخص صاحب الإصدار الأستاذ **فاضل خلف**، الذي وافق مشكوراً على طباعة كتابه القيّم «**دراسات أندلسية**» ضمن «**سلسلة تراثنا**».

وكما قال الشاعر:

بصرت بالراحة الكبرى فلم أرها تُنال إلا على جسر من التعب

فجهود المؤلفين واضحة بينة **"**لم أر باكياً أحسن تبسماً من القلم**"**

هكذا هو الكتاب، وهذا هو قلمه ومداده، يجوب صاحب القلم الميادين، وتكون له سياحة في آفاق الأدب. وينقب في الماضي، ليستخرج روائع الفكر والأدب.

يقول حاجي خليفة، صاحب كتاب كشف الظنون:

"إن التأليف على سبعة أقسام لا يؤلف عالمٌ عاقلٌ إلا فيها:

- إما شيء لم يُسبق إليه فيخترعه
- أو شيءٌ ناقصٌ، يُتَمِّمُه
- أو شيءٌ مغلقٌ، يشْرَحُه
- أو شيءٌ طويلٌ، يختصره
- أو شيء متفرقٌ، يجْمَعُه
- أو شيء مختلطٌ، يُرَتِّبهُ

- أو شيء أخطأ فيه مَصنِّفُه، فيصلحُه.

وقال الفضيل بن عياض: "ويتضاعف أثر الواعظ بتعلمه قواعد النحو، ليكون فصيحاً، وبمطالعة كتب الأدب ليكون ثري اللغة..."

فالكتاب هو الصاحب الوفي، كما قال الشاعر:

نِعمَ الجليس إذا خلوت به ... لا مكرُهُ يخشى ولا شَغبُه

فالكتاب أمين لا يغدر، صامت لا يهذر، ناصح لا يشاغب.

وشاعر آخر أردف قائلاً:

ما مات قوم إذا أبقوا لنا أدباً ... وعلم دين ولا بانوا ولا ذهبوا

فالوارث لهم يستشعر وحدة الأمة، وما هي إلا حلقات مستمرة، وإنما هم أحياء بيننا بكتبهم وحروفهم.

وانطلاقاً من هذا التراث العربي الأصيل يسرني أن أقدم تحية إجلال واحترام وثناء عطر لهذه المبادرة الثقافية من رابطة الأدباء، والتي أتمنى أن تتلوها مبادرات ثقافية أخرى في نفس هذا الاتجاه، وأن لا يتوقف هذا العطاء والإرث الأدبي.

وهدفنا أن نوفر هذا التدفق الأدبي والتعرف على إصدارات وإبداعات أدباء الكويت، مع الحفاظ على المكانة الراقية اللائقة للمؤسسة الأدبية، حتى تؤدي رسالتها خير قيام، في مناخ من الألفة والتعاون والتفاهم الأخوي.

هذه رسالة نقدمها إلى الأجيال الصاعدة فمن حق الشباب أن يطلع ويتلمس جهود إخوانهم الأدباء.

ويذكرنا ذلك ببيتين من الشعر للأديب عباس محمود العقاد:

إيه يا دهر هات ما شئت وانظر عزمات الرجال كيف تكون

ما تعسفت في بلائك إلا هان بالصبر منه مالا يهون

وختاماً هذا الجهد والعمل المضني وقف وراءه الأديب وعضو مجلس الإدارة أ. طلال سعد الرميضي رئيس لجنة التأليف والنشر بسعيه الحثيث في الإشراف على إنجاز هذه السلسلة الأدبية الرائعة.

فبارك الله بجهوده، وجهود إخوانه أعضاء مجلس الإدارة ولهم كل تحية وإجلال

أخوكم

صالح خالد المسباح

أمين عام رابطة الأدباء الكويتيين

مقــدمــة

في السنة الدراسية ١٩٤٠-١٩٤١م كان الأستاذ أحمد البشر الرومي يدرسنا مادة التاريخ في المدرسة الشرقية، وكان أستاذنا أديباً وشاعراً وهو مطلع على الأدب والتاريخ وسيرة المؤرخين وأهل المعرفة، وكان إذا تحدث عن التاريخ العربي يضع أمامنا مراحل هذا التاريخ بكل ما فيه من معرفة واطلاع، فإذا جاء ذكر تاريخ الأندلس رأيناه يتدفق كالجدول الرقراق في هذا المجال، فقد كان يحب الأندلس وآداب الأندلس وجمال الأندلس وخاصة الموشحات الأندلسية، ويذكر الكتب التي كانت تتحدث عن الأندلس ومن أشهرها نفح الطيِّب في غصن الأندلس الرطيب(*)، وكنا نصغي إليه بكل جوارحنا.

وتمر الأيام وأنا أزداد حباً للأندلس وأقتني الكتب التي تتحدث عن الأندلس وآداب الأندلس وكان في مكتبة الوالد كثير من الكتب التي كانت تتحدث عن الأندلس، حتى جاءت سنة ١٩٥٨م فوجدت نفسي أزور المملكة المتحدة واستقر في مدينة كبردج وكان في نيتي أن أقضي فيها أشهراً، ولكن حبي للمعرفة جعلني أقضي فيها أربع سنوات وكانت دروس أستاذي البشر عن تاريخ الأندلس تتردد أصداؤها في نفسي، وقد

(*) ومؤلفه هو أحمد بن محمد أبو العباس التلمساني ولد في تلمسان وتوفير في مصر ١٦٣١م.

أصبح لدي عدة كتب عن تاريخ الأندلس فقررت في سنة ١٩٦٠ أن أزور الأندلس، وكانت قريبة مني، وليس بيني وبينها سِوَى الخليج الإنجليزي، قررت زيارة الأندلس عن طريق البحر، وكان معي زوجتي وابني محمد وكان في السنة الثالثة من عمره، وعندما وصلت الباخرة إلى جبل طارق ونزلت في الأندلس تذكرت طارق بن زياد الذي نزل في هذا المكان فاتحاً ومن جبل طارق بدأت سياحتي، وقد أسموا هذا الجبل بجبل طارق بعد أن كان يدعى باسم قشتالي غريب هو جبل كالبي. فأخذت أدون ملاحظاتي في أوراق في دفتري وهي هذه الملاحظات التي يجدها القارئ الكريم في هذه الصفحات.

وكان خيال أستاذي البشر لا يفارقني وأنا أزور أشبيلية، ثم قرطبة ثم غرناطة وبعض المدن الصغيرة إلى أن انتهى المطاف في مدريد العاصمة واستغرقت السفرة أسبوعين دونت خلالها ما رأيته من جمال الأندلس التي كانت حديث الرحالة من العرب وغيرهم من عشاق السفر والارتحال.

وعندما حدثني بعض من إخواني أعضاء الرابطة عن نيتهم نشر هذه الأوراق في كتاب مستقل رحبت بهذه الخطوة الأدبية المباركة ولا يسعني إلا أن أشكر رابطة الأدباء الكويتيين راجياً لمجلس إدارتها التوفيق في هذه الخطوة الأدبية التي تُسجَّل بكل تقدير وحب. وإن هؤلاء الأخوة يبذلون كل جهد في هذه البادرة التي تسجل لهم في حفظ هذا التراث الأدبي الذي سوف يذكره التاريخ الأدبي لهم بكل فخر

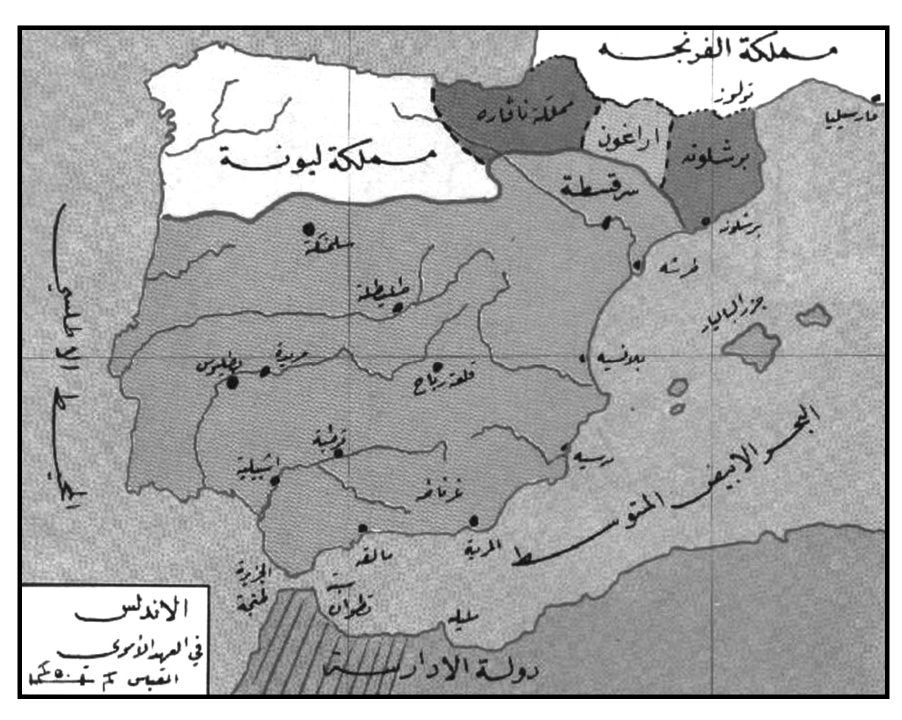
وبارك الله في هذا الجهد الذي يبذلونه للأجيال القادمة، وتحية من القلب أبعثها إلى رح أستاذي أحمد البشر الرومي الذي حبب إليَّ الأندلس وأدب الأندلس وجمال الأندلس وطبيعة الأندلس وخاصة الموشحات الأندلسية التي تتردد أصداؤها في الآفاق منذ مئات السنين في جميع الأقطار العربية من الرباط إلى عُمان، والله يوفق العاملين المخلصين من أهل الأدب والفكر في رابطة الأدباء.

فاضل خلف



فِي جَبَل طَارِقْ

لكـل شـيء إذا مـا تـم نقـصانُ فـلا يُغَـرَّ بطيـب العـيش إنـسانُ
هــي الأمـور كمـا شـاهدتها دول مــن سَــرَّه زمــن ســاءته أزمــانُ
وهـذه الـدار لا تبقـي علـى أحـد ولا يـدوم علـى حـال لهـا شـانُ
فاسأل بلَنْسِية مـا شـان مرْسِيةٍ وأيــن شــاطِبة أم أيــن جَيَّــانُ
وأيــن قُرطبــةٌ دار العلــوم فكــم مـن عـالم قـد سما فيهـا لـه شـانُ
وأين حمص ومـا تحويـه مـن نـزه ونهرهـا العـذب فيـاض ومـلآنُ



قال هذه الأبيات الملتهبة، أبو البقاء صالح بن شريف الرندي، وهو يرثي الأندلس ويستنهض همم العرب والإسلام، لإنقاذ البقية الباقية من الحواضر الأندلسية. ولا أعرف موضعاً رثاه العرب في تاريخهم الطويل، كما رثوا الأندلس. والأندلس قطعة من جنان الله في أرضه، وكانت في أيام العرب الزاهرة، تزدهر بعلومها وآدابها وفنونها، ومن الأندلس أخذ الغرب الكثير من ألوان حضارته. وقد حننت لزيارة الأندلس منذ أيام الصبا، وبلغ هذا الحنين أقصاه، في ربيع عام ١٩٦٠، وكنت إذ ذاك في أوروبا، قريباً من الفردوس المفقود.

وفي اليوم الأول من شهر مارس ١٩٦٠، غادرت بنا الباخرة ميناء لندن، وبعد ثلاثة أيام من متاعب البحر وآلامه. بلغت بنا الباخرة الشواطئ الغربية للأندلس، وفي فجر اليوم الرابع، ألقت الباخرة مراسيها، في الموقع الذي رست فيه سفن طارق بن زياد لفتح الأندلس في عام ٩٢هـ، ومنذ ألف وثلاثمائة عام تقريباً، وما كدت أعلم بنبأ الوصول، حتى نهضت من نومي نشيطاً فرحاً، برغم ما أصابني من مضايقات البحر، فماذا وجدت؟ وجدت سماء فوقي تتلألأ بنجومها الزاهرة، كما شاهدت تحتي بهاء الأنوار مزدهراً في المدينة الخالدة، التي تربض في سفح الجبل الخالد... جبل طارق بن زياد البطل الخالد. وبقيت أتشوف إلى تباشير الصباح. لأكحل عيني بجمال الصخرة الشماء التي خلدها طارق بن زياد في الأدب والتاريخ بعد أن كانت قبل الفتح تسمى جبل «كالبي».



أ. فاضل خلف في حضن جبل طارق عام ١٩٦٠م

وما كاد الصبح يتنفَّس، حتى رأيت أَجْمَل مَنظر وأروعه، رأيت أمامي جبال الأندلس وسهولها ووديانها الجميلة الخضراء، ورأيت هناك بعيداً وعلى مدى البصر، جبال مدينة (سبتة) التي عبر منها العرب إلى الأندلس بقيادة طارق بن زياد، فكان عبورهم أروع ملحمة خطها التاريخ وتغنَّت بها الأجيال. ورأيت قبل كل شيء جبل طارق، كالأسد الرابض، رأسه باتجاه الأراضي الأسبانية وذيله نحو البحر.

ثم حان الوقت للنزول، إلى الشاطئ، وما كدت أضع قدمي في البقعة الحبيبة التي خطا عليها طارق بن زياد وأصحابه الميامين، وخفقت فيها رايتهم الظافرة، حتى شرد بي الفكر فتخيلت نفسي جنديّاً في جيش فاتح الأندلس، وخُيِّل إِليَّ أنني أسمع صوت طارق يدوي في الآفاق، بخطبته

الـشهيرة وهـو يـستثير حمـاس الجنـود، ويغـرس فـيهم العـزّة والكرامـة والبطولـة النـادرة. وخُيِّـل إلـيَّ أننـي أرى الجنـود البواسـل، يقتحمـون الميدان، مُتَحَدِّين «لوذريق» وجيشه العظيم، حتى فَرَّ من الميدان فتشتت جيوشـه فـي الـسهول والوديـان، وانتـصر طـارق وجيـشه المظفَّـر. أروع انتصار عرفه العرب في أوروبا، هذا الانتصار الذي خَطَّ سطور الملحمة الأندلسية الخالدة، التي دامت في قلب أوروبا زُهاء ثمانمائة عـام. والتـي يردد العرب ذكرياتها حتى هـذه الأيـام، وبينمـا كنـت أعـيش مـع جـيش طارق بن زياد، في لحظاته المهيبـة الحاسـمة، سـمعت صـوتاً نقلنـي مـن ذلك الجو البطوليّ الخالد، كجنديّ في جيش طارق، إلى جو آخر كسائح عاديّ يزور مدينة جبل طارق، وكان هذا الـصوت صـوت سـائق الـسيارة، الذي أبلغني نبأ انتهاء الإجراءات القانونية وما علَيَّ إلَّا أن أدخل المدينة التاريخية العظيمة. وما كدت أستقر في الفندق بعض الوقت، حتى رأيت عبارة منقوشة على جدران الفندق، لفتـت انتبـاهي، وهيَّجـت فِـيَّ لـواعج الذكريات، وهي عبـارة (لا غالـب إلَّا الله) شـعار ملـوك بنـي الأحمـر آخـر حكـام غرناطـة – ومـن الجـدير بالـذكر، أن هـذه العبـارة المعبّـرة يجـدها السائح منقوشة في كل مدينة أسبانية، وفي كثير من منازلها. ومن عجـب أن الأسبان لا يعرفون معنى هذه العبارة، ولا الرَّسـام الـذي ينـسخها علـى الورق من قصر الحمراء في غرناطة، ولا حتى النحّات الذي ينحتهـا علـى الجدران.

وجاء السائق بعد أن أخذت نصيبي من الراحة، ليطلعني على معالم مدن طارق، وما بقي فيها من أثار العرب ومآثر الإسلام، إن كل شيء في هذه المدينة يذكّر السائح العربي بأرض الوطن، فالوجوه والأخلاق والطباع... كلها عربية، وسكان المدينة يعرفون طارق بن زياد معرفة جيدة. ويروون تاريخه رواية المطلع العارف، وقد لاحظت في الشارع الرئيسي للمدينة، مطعماً صغيراً اسمه (مطعم طارق) وهم لا يعتبرون أنفسهم من الأسبان، ولكنهم يعتبرون أنفسهم (طارقيين)، وسكان مدينة جبل طارق أغنياء منعمون، وأكثرهم يمتلكون أراضٍ شاسعة في جنوبي الأندلس، ولا يتجاوز عدد السكان ثلاثين ألفاً، ولكن يكثر السكان في النهار، عندما يفد إلى المدينة أكثر من عشرين ألف عامل أسباني يعبرون الحدود للعمل في مدينة جبل طارق، ثم يرجعون في المساء إلى قُراهم في جنوبي الأندلس، وأحبّ أن أذكر بهذه المناسبة أن اسم الأندلس ما زال يطلق على المنطقة الجنوبية لأسبانيا، وتشمل الحواضر الأندلسية الشهيرة كقرطبة وغرناطة وإشبيلية وغيرها.

وتعتبر مدينة جبل طارق جبلية نسبياً، وهي تشبه بعض المدن اللبنانية الواقعة في سفح جبل لبنان. وكُنّا في فصل الربيع، وكان شذى الورود والرياحين يغرينا بالتجوال في ربوع الجبل برغم موجة الحر التي هبت على المنطقة فجأة.

وقلت للسائق: أين الحصن الأندلسي؟ أين حصن المجد؟ وبعد دقائق دخلت بقايا الحصن الخالد الذي ثبت في وجه الحوادث ثلاثة

عشر قرناً.... هذا الحصن الذي أمر طارق بن زياد ببنائه ليكون برجاً للمراقبة، ثم جدد بناءه الخليفة الموحديّ المظفر، عبد المؤمن بن علي، بعد خمسة قرون. رأيت الحصن يعج بالسواح وأكثرهم من أقطار أوروبا وأمريكا، وهم يسمونه الحصن المراكشي. ورأيت كل سائح يكتب اسمه على جدران الحصن فأحببت أن أصنع كما يصنع الآخرون، ولكنني تذكّرت شيئاً هامّاً، وهو أن هؤلاء سواح عاديون، ويجب أن تختلف زيارتي عن زيارتهم، يجب أن أحيي بطلنا العظيم بأكثر من نقش الاسم على الجدران، ولم يهدأ لي بال حتى نقشت في إحدى زوايا الحصن المنيع هذين البيتين ووضعت اسمي تحتهما:

يا طارق بن زياد اسمك خالد … في كل خفاق وكل لسان
والصخرة الشماء باقية وقد … دك الزمان معاقل الطغيان

ثم زرنا متحف جبل طارق، وبقايا الحمامات العربية، ومغارة القديس ميخائيل، وهي مغارة واسعة مضاءة بالكهرباء، وتُشْبه إلى حَدٍّ ما مغارة جعيتا في لبنان. إلَّا أن مغارة جعيتا فيها نهر عجاج، أما مغارة جبل طارق، فليس فيها سوى مجار بسيطة، وينضح سقفها بقطرات من الماء. وزرنا كذلك كثيراً من معالم المدينة، كالدوائر الحكومية، والمدارس، ومراكز الشرطة والملاعب الرياضية، والأسواق المختلفة، والأنفاق الكثيرة في الجبل، ورأينا فيها بقايا الأسلحة والمدافع التي استعملت منذ قرنين من الزمان للدفاع عن الصخرة، ورأينا كذلك المطار، وهو أعجب مطار رأيته. فالمهابط فيه مشتركة بين الطيارات والسيارات فإذا

لاحت الطائرة في الأفق، توقفت حركة السيارات لتهبط الطائرة، وذلك راجع لصغر المدينة.

وأرجو أن أكون قد وُفِّقْتُ في نقلكم في هذه الدقائق القليلة إلى ربع من ربوع المجد... إلى جبل طارق بن زياد ومدينته الخالدة، حيث الجو الأندلسي المعطر، بمآثر العرب ومفاخر الإسلام.

❋ ❋ ❋



قصيدةُ
جَبَـلِ طَارق

في فجر اليوم الثالث من شهر مارس ١٩٦٠ رست بنا الباخرة «أجنحة روديسيا» القادمة من لندن في ميناء جبل طارق وقد استيقظت على صوت المرساة فرأيت وسط الظلام الدامس أضواء المدينة، وهي تتلألأ كأنها نجوم السماء والمجرات التي كنت أراها في طفولتي وشبابي الباكر، بعد أن حُجِبَتْ عن عَيني بسبب أضواء الكهرباء في الكويت وغيرها من المدن التي زرتها وكانت رَبَّة الشعر حاضرة، وفي الصباح ظهرت هذه الأبيات:

صَرْحٌ مَدَى الأَزْمَانِ نَاطقْ يَرْوِي أَقَّاصِيصَ البَوَاشِقْ

يَرْوي أَقَاصِيصَ العُلَا والمَجْد مِنْ أَيَّام طَارِقْ

ويُحَدِّثُ التَّارِيخُ فِي صُحُفٍ مُطَهَّرَةٍ نَوَاطِقْ

صُحُفٍ تَشَامَخَ مَجدُهَا فَتَعَطَّرَتْ زُهْرَ المَنَاطِقْ

وَبَدَتْ تُعَطِّرُ بالشَّذَا بِيضَ المَرَابِع والمَرَافِقْ

شَهِدَ البُطُولَةَ ذلكَ الجَبَلُ الأَشَمُّ... رَأى الحَقَائِقْ

فَمَضى يُمَجِّدُ باللِّسانِ الطَّلْقِ أَحْدَاثاً شَوَائِقْ

ويُسَجِّلُ الدُّرَرَ الخَوَالِدَ في سِجِلَّاتٍ صَوَادَقْ
شَهِدَتْ ذُرَاهُ طَلَائِعِ الجُلَّى وأَعْلَامَ الفَيَالِقْ
وبِدَايَةَ الفَتْح المُبِينِ وَمَوْكِباً في الدَّهْرِ بَاسِقْ

* * *

يا شامخاً في الأُفْقِ حَدِّثْ فالحَدِيثُ اليَوْمَ رائقْ
حَدِّثْ عَنِ الأَبْطَالِ لِلأَجْيَالِ والعُصُرِ اللَّواحِقْ
حَدِّثْ عَنِ السُّفُنِ المَوَاخِرِ وَهْيَ تَقْتَحِمُ المَغَالِقْ
حَدَّثْ وَلَا تَبخلْ فَقَد حَدَّثْتَ أَجْيالاً سَوَابِقْ
وَتَمِيسُ فَوْقَ المَاء تيهاً والخُلودُ لَهَا مُرَافِقْ
تَشْتَاقُ أَنْدَلُس الجَميلَةَ شَوْقَ مَعْشُوقٍ لِعَاشِقْ
وَبُطُولَةُ ابْنِ زِيَادَ تُلْهِبُ في الجُنُودِ قُوىً بَوَاسِقْ
وإذَا بِصَخْرَةِ طَارِقٍ تَزْهُو بِرَايَات خَوَافِقْ
وإِذَا بِطَارِقَ خَالِدٌ مُتَلَأْلِئٌ في كُلِّ خَافِقْ

* * *

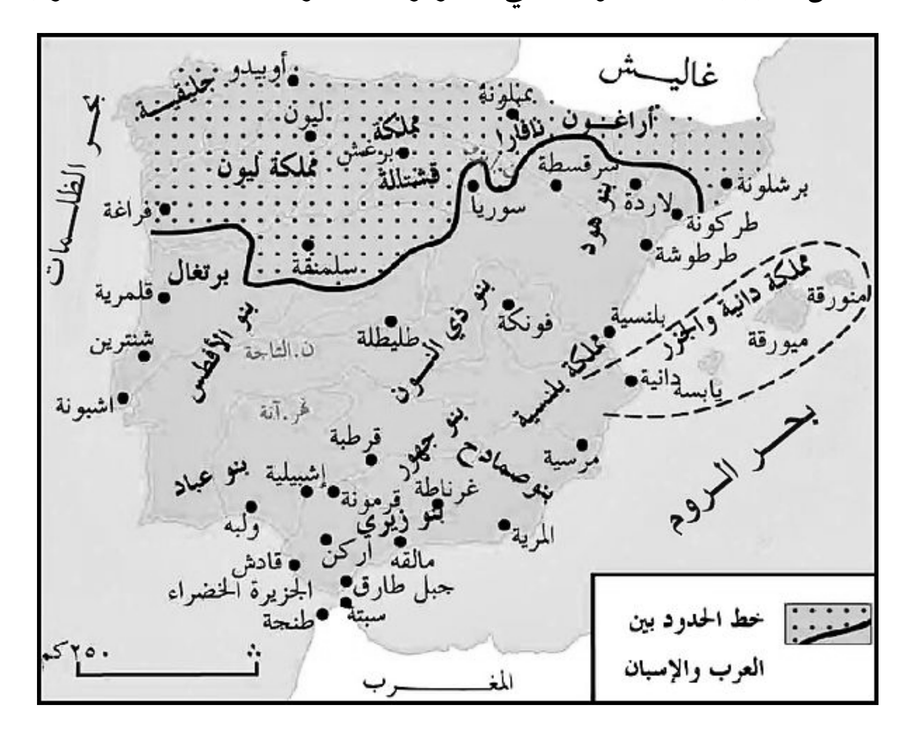
يَا صَخْرَةَ الفَتْحِ المُبِينِ لقد أتيتُ مِنَ المَشَارِقْ
في قَلْبِيَ الخَفَّاقِ حُبٌ لِلْحِمَى وَهَوىً مُعَانِقْ

* * *

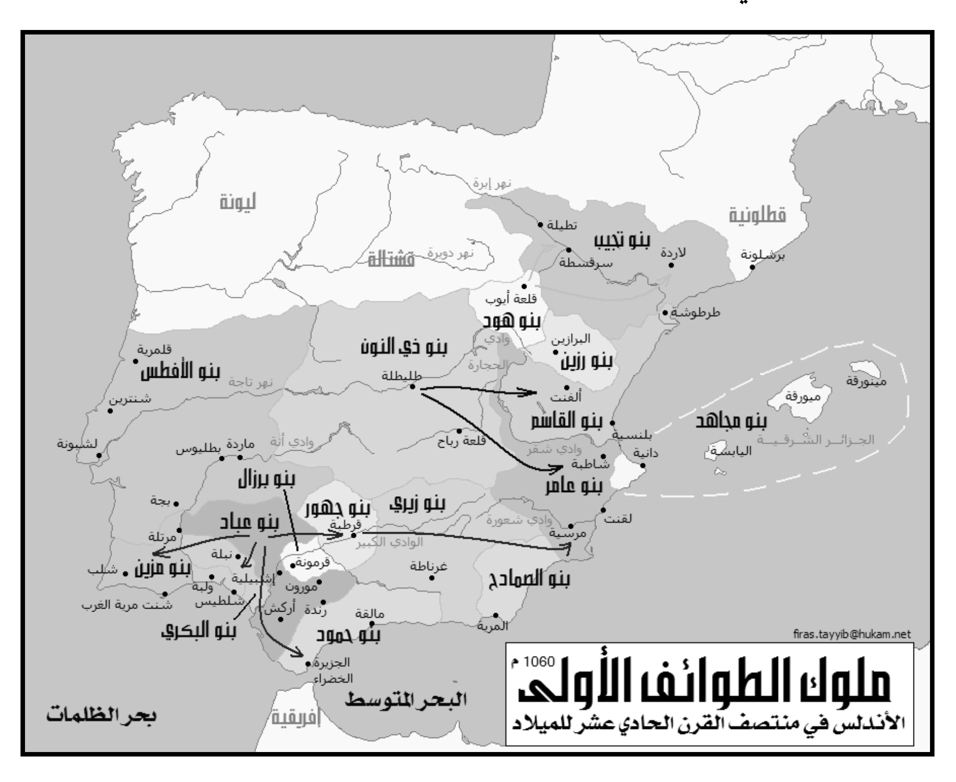


في إِشْبيلية

تحدَّثنا في الفصل السابق عن جبل طارق بن زياد ومدينته التاريخية الخالدة، التي تربض في سفحه، وسنلقي اليوم نظرة أخيرة على هذا الربع العامر، لنودعه قبل أن نتوغَّل في الأراضي الأندلسية. وقد اجتازت بنا السيارة الحدود الطارقية – الأسبانية صباحاً، وكانت مدينة (لالنيا) أول مدينة أسبانيا ندخلها. وبعد إنهاء الإجراءات القانونية، انطلقت بنا السيارة إلى الجزيرة الخضراء، لنستقل منها سيارة أخرى إلى عروس الأندلس أشبيلية. وقد توقفنا في الجزيرة الخضراء ثلاث ساعات تقريباً،



أخذنا نصيبنا من الغذاء والراحة، قبل أن يحين موعد الرحيل. واستعدنا في الذاكرة – ونحن نجول في هذه المدينة الأندلسية، أيام عزّها وفخارها، وخاصة عندما عبر إليها البطل العربي العظيم، يوسف بن تاشفين، لنجدة الأندلس، وكانت قد تمزَّقت إلى دُوَيْلات كثيرة، مما أطمع فيها العدو، حتى باتت الأندلس كلها في خطر مُحْدَق، وقد فتح الله عليه وانتصر على الأسبان في موقعة الزلاقة، انتصاراً عظيماً في سنة ١٠٨٦م، ثم قضى على ملوك الطوائف، ووحَّد الأندلس والمغرب في دولة واحدة، هي دولة المرابطين.



وغادرت بنا السيارة بعد الظهر، بقليل قاصدة أشبيلية، ولست أدري – كيف أنقل إليكم شعوري وذكرياتي الحارة في ذلك اليوم. لقد كنت طيلة الساعات الست التي قضيناها في الطريق، أعيش مع التاريخ، فمن هذه السهول الخضراء المزدانة بأشجار الزيتون، توجهت جيوش العرب، حاملة رايات الإسلام الظافرة إلى قلب أوروبا، بقيادة طارق بن زياد، وفي هذه الربوع كان صوت المؤذن يتعالى في الآفاق، داعياً أهل الأندلس إلى ذكر الله، وفي هذه الربوع تليت الآيات والصلوات وانتشرت تعاليم الإسلام، ومن هذه الربوع أضيفت إلى التاريخ صفحات مشرقة، ومن هذه الربوع ظهرت حضارة عربية إسلامية سامقة، ما تزال آثارها حتى يومنا هذا تتحدث بأفصح لسان وأطيب بيان.

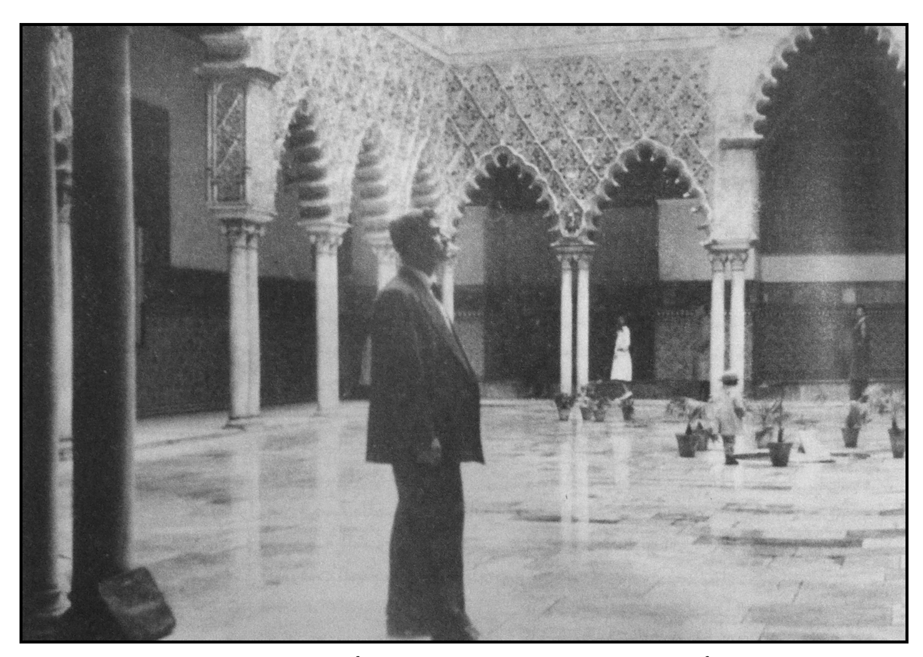
كنت أعيش مع التاريخ المعطّر وذكرياته الجميلة، عندما رأيت على البُعد منارة المنصور تلوح في الأفق، كالعلم الخفاق، بقامتها المديدة التي تقارب المائة متر، وبعد ذلك بقليل، دخلنا أشبيلية – عروس الأندلس ومدينة الأدب والفن – مع الغروب، وما كاد يستقر بنا المقام في الفندق، حتى تغيَّر الجو فزالت موجة الحر وحل محلها موجة باردة يصاحبها مطر شديد استمر أسبوعين، وهي المدة التي قضيناها في ربوع الأندلس.

إن أشبيلية مدينة ضاحكة مستبشرة، ينشرح فيها الخاطر، وتطمئن في جنباتها النفس، وكان العرب يسمونها «حمص» لأنها شديدة الشبه

بحمص الشام، ويقول أبو البقاء الرندي، في قصيدته المشهورة التي يرثي بها الأندلس:

وأين حمص وما تحويه من نزهٍ ونهرها العَذْب فياض وملآنُ

إن في ازدهار أشبيلية، سراً من أسرار التاريخ، وكأنها تريد أن تؤكد للأجيال أنها مدينة الحب والجمال، مهما يتقادم عليها العهد، وكأنها تبرهن للعصور أن شبابها يتجدد على الأيام وأنها لا تعرف إلَّا الجوانب المشرقة من الحياة، وإلَّا الأفراح والمسرات. وقد قيل قديماً إنه إذا توفي المطرب في قرطبة، نقلت آلات طربه إلى أشبيلية، وإذا توفي العالم في أشبيلية، نقلت كتبه إلى قرطبة.



زيارة أ. فاضل خلف لقصر إشبيليا – أسبانيا عام ١٩٦٠م

وقد كانت أشبيلية في أيام العرب الزاهرة، إلى جانب نبوغها في الفن، مبرزة في الأدب والشعر، وهما أيضاً من الفنون الجميلة. وكانت أشبيلية مرابع الملك الأديب، والشاعر الشجاع، المعتمد بن عباد، وعاصمة ملكه وهو القائل:

إن يسلب القوم العدى … درعي وتسلمني الجموعُ
فالقلب بين ضلوعه … لم تسلم القلبَ الضلوعُ
قد رُمْتُ يوم نزالهم … ألَّا تُحَصِّنني الدروعُ
وبرزْت ليس سوى القميـ … ـص من الحشا شيءٌ دَفُوعُ
أجَلي تأخر لم يكن … بهواي ذلي والخضوع
ما سرت قطّ إلى القتا … ل وكان من أملي الرجوعُ
شيم الأُلَى أنا منهم … والأصل تتبعه الفروعُ

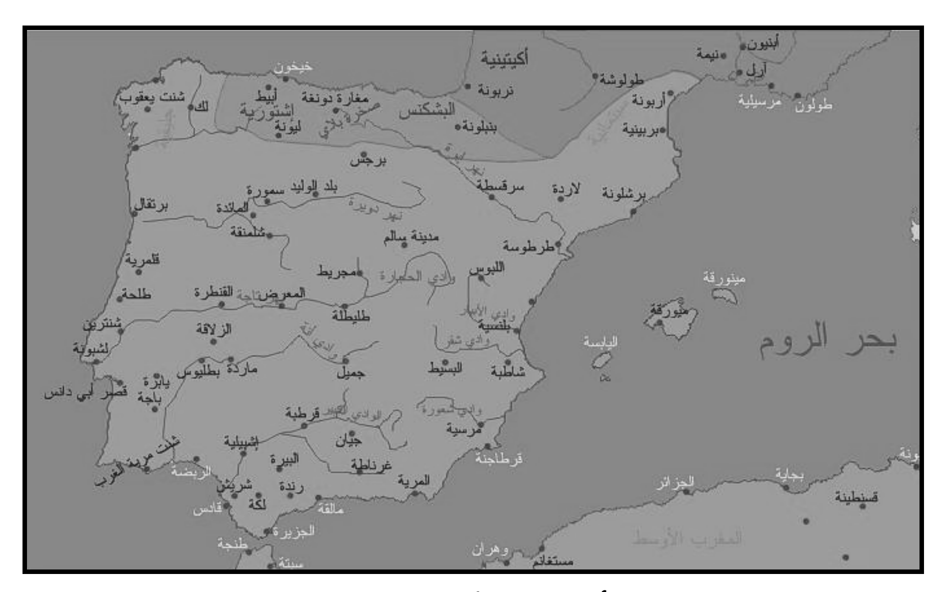
وأشبيلية اليوم، من أكبر المدن الأسبانية، وفيها حركة ثقافية ممتازة، وفيها جامعة مشهورة أنشئت منذ مائتي سنة تقريباً، وفي كلية الآداب التابعة لها قسم خاص لتعليم اللغة العربية، وتمتاز أشبيلية أنها ما زالت تحافظ على طابعها الأندلسي الأصيل، وخاصة في هندسة المباني، فالمنزل في أشبيلية فيه حوش تحيط به الغرف، وفي وسط الحوش حديقة صغيرة. والبيوت في أشبيلية، وفي كثير من المدن الأندلسية الجنوبية، تشبه البيوت في الكويت، وفي بعض البلاد العربية المحافظة على الطابع العربي في مبانيها.

وأشبيلية ما زالت تحتفظ إلى جانب طابعها الأندلسي، ببعض الآثار الإسلامية التي سلمت من عبث الزمان وجور الأيام، وأهمّها بقايا المسجد الجامع، الذي بناه سلطان المغرب والأندلس، يوسف بن عبد المؤمن الموحدّي، في أواخر القرن الثاني عشر الميلاديّ، وكانت أشبيلية عاصمة ملكه، وقد توفي قبل أن يتم البناء، فقام بإتمامه ولده يعقوب «المنصور» وأنشأ فيه منارة عظيمة، ما زالت تشمخ بفنها الأندلسي الرائع، وتعرف اليوم عند الأسبان (بخير الدا) أما عند العرب فهي منارة المنصور. وعندما سقطت أشبيلية في يد الأسبان، حولوا المسجد إلى كنيسة القديس بطرس في رومة. ومن حسن الحظ، أن الأسبان لم يهدموا المنارة كلها - كما صنعوا بالمسجد - بل هدموا الجزء الأعلى منها، ليقيموا محله برج الأجراس، ووضعوا فوق البرج تمثال «الإيمان»، وارتفاعه خمسة أمتار، يدور مع الريح، لذلك فقد أُطْلِقَ على المنارة اسم (خير الدا) وكل ضلع من أضلاعها يبلغ حوالي أربعة عشر متراً، ويبلغ سمك حيطانها مترين ونصفاً، وقد صعدنا إلى أعلى المنارة بعد مشقّة، بواسطة ممر صاعد مرصوف بالآجر، وعلى جوانبه فتحات كثيرة لدخول النور والهواء، وعندما بلغنا إلى القمة، رأينا أشبيلية الجميلة كالعروس، تتلألأ في حللها الزاهية، ورأينا نهر الوادي الكبير، يخترقها فيقسمها إلى قسمين، ويهديها الخير والبركات. أما المسجد فلم يبق منه سوى صحنه الفسيح وبابه الضخم، بنقوشه الإسلامية وزخارفه الأندلسية، وقد كتب على قبضتيه «بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة على محمد».

ومن الآثار الأندلسية العظيمة التي تحدت العصور، «قصر» أشبيلية، وقد جُلْنا فيه، وقرأنا فوق جدرانه العبارات العربية، والآيات القرآنية ومنها آية الكرسي، في ساحة العرائس. وقرأنا كذلك كثيراً من أبيات الشعر التي ما زالت ترصع جنبات القصر.

ويقال: إن هذا القصر بُنِيَ على أَنْقاض قصر المعتمد بن عباد. وقد أنشأه أبو يعقوب يوسف، الخليفة الموحديّ وولده «المنصور» في نفس الوقت الذي بني فيه الجامع والمنارة، لذلك فإن التاريخ يشكر هذين البطلين الأندلسيين، بحروف من نور، وإليهما يرجع الفضل في كثير من الأمور، أهمها ثباتهما أمام جحافل القشتاليين، للدفاع عن الأراضي الأندلسية.

وفي أشبيلية برج الذهب الواقع على نهر الوادي الكبير، وقد بناه الموحدون، وقد وجدنا فيه آثاراً أندلسية كثيرة، ومنها أسلحة يرجع عهد أكثرها إلى أيام الموحدين، وقد زرنا كذلك بقايا الأسوار الأندلسية، التي بناها الموحدون أيضاً، لحماية المدينة من هجمات القشتاليين، الذين تمكنوا بعد أعمال حربية متواصلة، من الاستيلاء على أشبيلية، في عام ١٢٤٨ ميلادية، أي منذ سبعة قرون، فأفل فيهما نجم العرب، وغابت عنها شمس الإسلام.



الأندلسُ في أقصى اتساعِها



فِي مَسْجِدِ قُرْطُبَة

رأيت وأنـا أمشي صُعُداً نحو مسجد قُرْطبة، مباني لا أعتقد أنها اختلفت كثيراً عن تلك المباني الأندلسية القديمة، في أيام العرب والإسلام. وهذه المنازل التي تحيط بالمسجد الجامع، كأنها تبرهن للعصور المتعاقبة والأجيال المختلفة – في قُرْطبة –، أنها تحرس هذا المسجد وتحميه من صروف الأيام وعاديات الزمان.. المسجد الذي أقيمت فيه الصلوات وتليت فيه الآيات، وتخرج فيه كثير من أهل العلم الذين ما زالت آثارهم العلمية والأدبية تدرس في جامعات الشرق والغرب.

وعندما دخلت صحن المسجد الجامع، وكُنّا في أحد أيام رمضان المبارك، تمثل أمامي تاريخه وأمجاده ومآثره بأجلى مظاهرها. لقد وجدت المسجد، ولكن أين المصلون؟ أين الذين عمروا هذا المسجد، ونشروا الإسلام في ربوع الأندلس، وأقاموا حضارة تحدث بها التاريخ بفخر واعتزاز؟ أقضيت الصلاة فانتشر المصلون في قرطبة؟ أم جئت أنا بعد المصلين بسبعة قرون؟

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمر بمكة سامرُ
بلَى نحن كنا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثرُ

ولفت انتباهي قبل أن أدخل المصلى لوحة رخامية وضعت على الجانب الأيمن لباب النخيل، كتبت بخط كوفي جاء فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، أمر عبدالله عبدالرحمن أمير المؤمنين الناصر لدين الله، أطال الله بقاه. ببنيان هذا الوجه وإحكام إتقانه، تعظيماً لشعائر الله. ومحافظة على حرمة بيوته التي أذن الله أن ترفع، ويذكر فيها اسمه، ولما دعاه على ذلك، من تقبل عظيم الأجر، وجزيل الفخر، مع بناء شرف الأثر وحسن الذكر، فتم ذلك بعون الله، في شهر ذي الحجة سنة ست وأربعين وثلاثمائة، على يد مولاه ووزيره وصاحب مبانيه عبدالله بن بدر. عمل سعيد بن يعقوب».

أجل هذه لوحة تاريخية كتبت منذ ألف عام، في أيام عبدالرحمن الناصر، وفي عهد الأندلس الذهبي، وهي تؤرخ بناء واجهة المسجد. ولا يستطيع السائح العربي المسلم، أن يتجاوز هذا المكان دون أن يقف وقفة إجلال وإكبار، لعبد الرحمن الناصر، الذي نصره الله فبلغ بالأندلس إلى ربوع المجد، ورفع رايات الإسلام عالية خفّاقة في قلب أوروبا، حتى خافته الدول والملوك، وطلبت رضاه. ويقف السائح كذلك إجلالاً وإكباراً، لصقر قريش، عبد الرحمن الداخل، الذي تسلّم زمام الأمور بالأندلس، وكانت على وشك الانهيار المُبْكِر، فأقام فيها دولة عربية إسلامية عظيمة، دامت عدة قرون.



أ. فاضل خالف مع رفيقة دربه على مدى ٥٠ سنة
وابنهما السفير محمد في مسجد قرطبة - الأندلس

ووقفت عند باب المصلى، وقبل أن أدخله، قلت بصوت لم يتجاوز القلب: (السلام على مسجد قرطبة) فَخُيِّل إليَّ أن المسجد يهتز بأعمدته وعقوده ومحرابه في الردّ على التحية، كما خُيِّلَ إِلَيَّ أنني أسمع جواب التحية مدوياً، من ملايين الأرواح الحزينة الحائمة في جنبات هذا المسجد الحزين.

ثم دخلت المصلى.. دخلته كمصل يقف بين يدي الله، في بيت من بيوت الله بخشوع وتبتَّل، كما كان يدخله المسلمون الأولون – رحمهم

الله – وما وقعت عيناي على أعمدة المسجد المتشابكة، التي كأنها غابة من الأعمدة، حتى هاجت بي الذكريات المثيرة وغالبت الدمع وهو أغلب، وأخذت أتمسح بأعمدة المسجد وحيطانه ومحرابه ونقوشه الإسلامية، وأعانق أرواح المصلين الذين كانوا في المسجد في شباب زمانه، وأردد مع أحمد شوقي قوله الخالد في هذا المسجد، من قصيدته الأندلسية:

ورقيق من البيوت عتيق	**جاوز الألف غير مذموم حَرْس**
أثر من محمّد وتراث	**صار للروح ذي الولاء الأَمَسِّ**
بلغ النجم ذروة وتناهى	**بين (ثَهْلَان) في الأساس و(قُدْسِ)**
مرمرٌ تسبح النواظر فيه	**ويطول المدى عليها فترسي**
وَسوارٍ كأنها في استواء	**ألفاتُ الوزير في عَرْضِ طِرْسِ**
فترة الدهرِ قد كسَتْ سَطَرَيْها	**ما اكتسى الهُدْب من فُتُور وَنَعْس**
ويحها كم تزيَّنت لعليم	**واحد الدهر واستعدَّت لخَمْس**

وكأن الرَّفيفَ في مسرح العين مِلَاءٌ مُدَثَّرات الدِّمَقس

وكأن الآيات في جانبيه	**يتنزَّلن من معارج قُدْس**
مِنْبَرٌ تحت (مُنْذِر) من جلال	**لم يزل يكتسيه أو تحت قُسّ**
ومكانُ الكتاب يغريك رَيَّا	**وَرْده غائباً فتدنَو لِلَمْس**

صنعه (الداخل) المبارك في الغرب وآلٍ له مَيَامينَ شُمْسِ

وكنت في حالة نفسية لا يعرفها إلَّا كلّ شاعر حساس، مرّت عليه مثل هذه المواقف الحزينة، وعاش مع ذكرياتها الملتهبة.

ولم يكن موقفي غريباً، فقد وقف قبلي الغزال الفاسي، سفير سلطان الملك إلى ملك أسبانيا، كارلوس الثالث، منذ قرنين من الزمان. وقد وصف لقاءه الحزين مع هذا المسجد فقال:

«ومنذ عَبَرنا هذا المسجد، لم تفتر لنا عبرة، مما شاهدنا من عظمته، وتذكرنا ما كان عليه عهد الإسلام، وما قرئ فيه من العلوم، وتليت فيه من الآيات، وأقيمت فيه من الصلوات، وقد تخيّل في الفكر أن حيطان المسجد وسواريه، تسلم علينا، وتهش إلينا، من شدة ما وجدنا من الأسف، حتى صرنا نخاطب الجمادات، ونعانق كل سارية، ونقبل سواري المسجد وجدرانه».

لقد كانت لي مواقف حزينة مع كثير من المساجد الإسلامية القديمة، ولكن هذه المساجد برغم أن بعضها أصبح مهجوراً، ومقفراً من المصلين كمسجد البصرة ومسجد سامراء، ما زالت في بلاد عربية إسلامية، يتعالى بالقرب منها صوت المؤذن يومياً. أما في قرطبة فيختلف الأمر تمام الاختلاف:

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات

ودخلت المحراب.. محراب مسجد قرطبة، فماذا وجدت؟ وجدته وكأن المسلمين خرجوا منه بالأمس القريب، وقرأت الكتابة العربية المنقوشة فيه، وهي تؤرخ إنشاء هذا المحراب من قبل الحكم المستنصر، وهذا نصها:

«بسم الله الرحمن الرحيم، حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى، وقوموا لله قانتين. أمر الإمام المستنصر بالله، الحكم، أمير المؤمنين أصلحه الله بعد عون الله، فيما شيده من هذا المحراب، بكسوته بالرخام، رغبة في جزيل الثواب، وكريم المآب، فتم ذلك على يد مولاه وحاجبه جعفر بن عبدالرحمن رضي الله عنه، بنظر محمد تمليخ، وأحمد بن نصر، وخالد بن هاشم، أصحاب شرطته، ومطرف بن عبدالرحمن الكاتب، في شهر ذي الحجة من سنة أربع وخمسين وثلاثمائة، ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى، وإلى الله عاقبة الأمور».

أجل أيها المسلمون حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى، ولكن:

قفا نسأل الدار التي خَفّ أهلُها   متى عهدها بالصوم والصلوات

أجل.. إن هذا المسجد الجامع، منذ أن سقطت قرطبة في عام ١٢٣٦ ميلادية، وهو قفر من الصلوات والمصلين لأن الأسبان حولوا المسجد إلى كنيسة عظمى، أي كتدرائية. ولعلَّ أول صلاة أُقيمت فيه منذ أن غابت شمس الإسلام عن قرطبة- كما يقول الدكتور عبدالوهاب عزام – هي صلاة شاعر الهند الكبير محمد إقبال، الذي زار قرطبة في سنة ١٩٣٦م، فهاجت به الذكريات الحزينة، وهو يجول في ربوع المسجد الحزين، وطلب من المسؤولين أن يصلي في البقعة التي صلى فيها قبله ملايين المسلمين في قرطبة.

ومسجد قرطبة اليوم، ليس في هيئته الأولى كما تركه المسلمون - رحمهم الله - لأن الأسبان أخذوا في تشويهه منذ أن استولوا عليه، وأقاموا هيكلاً عظيماً في وسطه، في أواخر القرن الثالث عشر الميلاديّ، وأزالوا بذلك جانباً كبيراً من سقف المسجد. وقد استهدف هذا التشويه إلى نقد شديد من علماء الأسبان، الذين استنكروا أشد الاستنكار ما قامت به يد التعصّب، في تشويه هذه التحفة الإسلامية والدرّة الأندلسية.

وقد بدأ في إنشاء هذا المسجد العظيم، عبد الرحمن الداخل، وأتمه ولده هشام، ثم أخذ حكام الأندلس، يتعاقبون على إصلاحه وتحسينه، كعبد الرحمن بن الحكم ومحمد بن عبدالرحمن، وابنه عبد الله، وعبدالرحمن الناصر، والحكم المستنصر، وزاد في أعمدته، حتى بلغت أكثر من ألف ومائتي عمود. أما اليوم فلم يبق منها سوى ثمانمائة عمود بعد تشويه المسجد.

وقد وقفت في مسجد قرطبة، وقفة إجلال وتقدير، لمحمد بن أبي عامر، هذا البطل الأندلسي العظيم، الذي استطاع بقوة شخصيته وطموحه وإخلاصه. أن يعيد إلى الخلافة الإسلامية في الأندلس هيبتها بعد أن طمع فيها البعيد والقريب. واستطاع بشجاعته النادرة أن ينتصر على الأسبان في أكثر من خمسين موقعة. حتى امتدت حدود الأندلس إلى أبعد مما كانت عليه قبل أن يتولى زمام الأمور.

❊ ❊ ❊



إقبال في محراب قرطبة

ليت شعري هل استطاع إقبال أن يسمع من وراء الأجيال الآذان تردده مآذن جامع قرطبة أم أنصت إلى القرآن يرتله الأئمة في المحراب؟ أم انقلبت آيات القرآن التي لا تزال تنير في جدران المسجد ترتيلاً في أُذنه، ووحياً في قلبه؟ أي قصيدة هذه؟ أي شاعر ينظم القصيدة التي عنوانها (إقبال في محراب قرطبة).

عبدالوهاب عزام

هِيَ قِصَّةُ المَجْدِ النَّضِير خَلَدَتْ عَلَى مَرِّ العُصُورِ
هِيَ قِصَّةُ التَّاريخِ والذِّكْرَى عَلَى الدَّرْبِ المُنِيرِ
هِيَ قِصَّةُ الذِّكْرَى وَقَدْ خَفَقَتْ بِأَعْمَاقِ الضَّمِيرِ
خَفَقَتْ بِقَلْبِ الشَّاعِرِ المَفْتُونِ فهي زُهْرِ الأُمُورِ
الشَّاعِر المَفْتُونِ في حُبِّ البَوَاشِقِ والنُّسُورِ
فِي حُبِّ قَوْمٍ طَيَّرُوا الرَّايَاتِ في الرَّحْبِ الكَبِيرِ
وَبَوَارِقُ الإِيمَانِ تَحْدُوهُمْ إِلَى النَّصْرِ الشَّهِيرِ
نَشَرُوا بِهَا الإِسْلَامَ في الأَمْصَارِ في أَبْهَى سُطُورِ
(اللهُ أَكْبَرُ) قَدْ غَدَتْ أُغْرُودَةَ الدِّين الطَّهُورِ

وَتَــــرَدَّدَتْ أَصْـــــدَاؤُهَا فَـــوْقَ البَـــرَارِي والبُحُــــورِ
بَقيَـــتْ قُرونـــاً بَـلْ سَـتَبْقَى الـدَّهْرَ فـي العِـزِّ الجَـدِيرِ
فَلَهَـــا بِـــشَرْقِ الأَرْضِ ذِكْـــرٌ لَا يَكُـــفُّ عَـــنِ الهَــدِيرِ
وَلَهـــا بِغَـــرْب الأَرْض أَذْكَـــارٌ تَعَـــزّ عَـــنِ النَّظِيـــرِ
ولَهَـــا بِأَنْـــدَلُسِ دَوِيٌّ مُنْـــذُ أَيَّـــامِ الحُبُـــورِ
أَيَـــامِ عِـــزِّ العُـــرْبِ والإِسْــلَامِ والخَيْــر الكَثِيـــرِ
أَيّـــامِ قَرُطُبَـــةَ وَكَـــمْ كَانَـــتْ مَنَـــاراً لِلثُّغُـــورِ
أَهَــدَتْ حَــضَارَتَهَا إلــى الــدُّنْيا مَــع الفَـضْلِ الــوَفِيرِ
قَــدْ كَــانَ مَــسْجِدُهَا الْعَظــيمُ مَنَــارَةَ الفِكْــرِ الفَخُــورِ
فَاضَـــتْ جَوَانِبُـــه بِـــآلاء مـــن الله الغَفُـــورِ
فتـــسابَقتْ أُمَـــمٌ وأَقْـــوَامٌ إلـــى النَّبْـــعِ النَّمِيـــرِ
فَزَهَــتْ شُــعُوبٌ بَعْــدَ معــا كَانــتْ بِجَهْــلٍ مُــسْتَطِيرِ
وَمَــضَت تُــسَطِّرُ مَجْــدَها بــالعلْمِ والأَدَب النَّــضيرِ
واليــومَ يَــأْتِي شَــاعِرُ الإِسْـلَامِ ذُو الـصِّيتِ الجَهِيـرِ
لِيَــزُورَ عَاصــمَةَ الخِلَافَــةَ وَهْــوَ مُــضْطَرِمُ الــشُّعُورِ
لِيَــزُورَ مَــسْجِدِهَا العَظــيمَ وَقَــدْ مَــضَى عَهْــدُ الــسُّرُورِ
مَــاذَا رَأَىٰ يَــا لَلْمَــشَاعِرِ مِــنْ تَــصَارِيفِ الــدُّهُورِ
مَــاذا رَأَى؟ والــدَّارُ قَفْــرٌ مِــنْ قَرِيــبٍ أَوْ عَــشِيرِ

مَـــاذَا تَـــصَبَّى شَـــاعِرَ الإِسْـــلَامِ أَثْنَـــاءَ المَـــسِيرِ
مَـــاذا تَـــصَبَّى الـــشَّاعِرَ الحَـــسَّاسَ فِـــي الـــصَّمْتَ المَرِيـــرِ
فِـــي صَـــمْتِ مَـــسْجِدِها المُعَطَّـــلِ فِـــي الأَصَـــائِلِ والبُكُـــورِ
فِـــي صَـــمْتِهِ بَعْـــدَ الفَخَـــارِ وَبَعْـــدَ عَهْـــدٍ مُـــسْتَنِيرِ
فـــي صَـــمْتِه بَعْـــدَ الـــصَّلَاةِ وَقَـــدْ غَـــدَتْ خَلْـــفَ الـــسُّتُورِ
فِـــي الـــصَّمْتِ بَعْـــدَ تِـــلَاوَةَ الْقُـــرآنِ فـــي البَيْـــتِ الوَقُـــورِ
لِلّٰهِ مَـــا أَبْهَـــى الـــصَّلَاةَ صَـــلَاةَ إِقْبَـــالِ الْكَبِيـــرِ
وَصَـــلَاتَهُ الغَـــرّاءُ تَبْعَـــثُ بِالـــسَّكِينَةِ فـــي الـــصُّدُورِ
وقِيَامُـــه فـــي دَوْحَـــة المِحْـــرَابِ بِالقَلْـــبِ الكَـــسِيرِ
يَـــا شِـــعْرُ مَجِّـــدْ هـــذه الـــصَّلَواتِ بـــالمَعْنَى المُثِيـــرِ

* * *

فِـــي الجَـــامِعِ المَهْجُـــورِ حَيْـــثُ خَـــلَا مِـــنَ الـــذِّكْرِ الأَثِيـــرِ
حَيْـــثُ الفَنَـــاءُ مُـــرَزَّءٌ يَـــشْكُو لَـــه سُـــوءَ المَـــصيرِ
حَيْـــثُ المُـــصَلَّى مُقْفِـــرٌ مِـــنْ ذِي صَـــلَاةٍ أَوْ نُـــذُورِ
حَيْـــثُ الزَّوايَـــا المُظْلِمَـــاتُ تَـــنَمُ عَـــن وَضْـــعٍ عَـــسيرِ
حَيْـــثُ العُقُـــودُ المُوحِـــشَاتُ تَـــئِنُّ مِـــنْ زَمَـــنٍ غَـــرُورِ
حَيْـــثُ الـــسَّوَاري العَـــاثِرَاتُ تَحِـــنُّ لِلْعَقْـــدِ النَّثِيـــرِ
وجَوَانِـــبُ المِحْـــرَابِ تَبْحَـــثُ عَـــنْ مُـــواسٍ أَوْ نَـــصِيرِ

وَبَقِيَّـــةُ الآيَـــاتُ فِـــي الجُـــدْرَانِ نُـــورٌ فَـــوْقَ نُـــورِ
تَرْنُـــو هُنَـــاكَ وهَـــا هُنَـــا لِلقَـــارِئِ الفَـــرْدِ البَـــصِيرِ
فـــي المَـــسْجِد المَحْـــزُونِ لَا أَحَـــدٌ سِـــوَى العَلَـــمِ الخَبِيـــرِ
لَا عـــالِمٌ يُلْقِـــي الـــدُّرُوسَ وَلَا مُـــصَلٍّ فـــي شُـــكُورِ
مَـــا فِـــي الـــرَّوَاقِ خَلِيفَـــةٌ مَـــا فـــي المُـــصَلَّى مِـــنْ وَزِيـــرِ
مَـــا فِـــي الثَّنَايَـــا قَائِـــدٌ يُهْـــدِي المَفَـــاخِرَ للأَمِيـــرِ
مـــا فِـــي الـــصُّفُوفِ مُجَاهِـــدٌ يَـــدْعُو الكَتَائِـــبَ للنَّفِيـــرِ
صَـــمْتٌ رَهِيـــبٌ طَبَّـــقَ الأَرْجَـــاءَ بِالْيَـــأْسِ المَرِيـــرِ
فـــي المَـــسْجِدِ المُلْتَـــاحِ حَيْـــثُ تَـــرِنُّ أَصْـــدَاءُ العُـــصُورِ
إِقْبَـــالُ رُوحٌ يَلْمَـــحُ الأَرْوَاحَ تَـــسْبَحُ فِـــي الأَثِيـــرِ
أَرْوَاحَ جِيـــلٍ مُـــؤْمِنٍ بِرِسَـــالَةِ الهَـــادِي البَـــشِيرِ
ويُحَـــدِّث القُـــصَّادَ عَـــنْ عَهْـــدٍ وَسُـــلْطَانٍ قَرِيـــرِ
عَهْـــدِ الفُتُـــوحِ وَقَـــدْ أَهَـــلَّ بِطَـــارِقٍ وَابْـــنِ النَّـــصِيرِ
والغَـــافِقِيُّ بَلَاطُـــه مُتَلَأْلِـــئٌ رَغْـــمَ العُثُـــورِ
قَـــدْ سَـــجَّلَ الـــشُّهَدَاءُ أَمْجَـــاداً بِوَادِيـــهِ الخَـــضِيرِ
وصَـــحَائِفُ التَّـــاريخِ تُطْرِيـــهِ إِلَـــى يَـــوْمِ النُّـــشُورِ
إِقْبَـــالُ هـــذي الـــذِّكْرَياتُ مُعَطَّـــرَاتٌ بِـــالْعَبِيرِ
يـــا شَـــاعِرَ الإِسْـــلَامِ حَـــدِّث عَـــنْ طَوَافِـــكَ والمُـــرورِ

حَــدِّثْ أَيَــا إِقْبَــالُ عَــنْ هــذا اللِّقــاءِ وَكُــنْ سَــمِيرِي
فــي المَـسْجِدِ المَحْـزُونِ حَيْـثُ خَطَـرْتُ فـي الـزَّمنِ الأخيـرِ
فَرَأَيْــتُ بُقْعَتَــكَ المُــضِيئَةَ وَهْــيَ تَبْــسِمُ لِلْحُــضُورِ
وسَــمِعْتُ مِــنْ خَلْــفِ العُــصُورِ تِــلَاوَةَ الجَمْــعِ الغَفِيــرِ
وسَــمَعْتُ فــي آفَاقِهَــا صَــوْتَ المُــؤَذِّنِ كالْهَــدِيرِ
ولَمَحْــتُ أَبْطَــالَ الجِهَــادِ هُنَــاكَ فِــي طَــرْفٍ حَــسِيرِ
ولَمَحْــتُ فِــي المِحْــرَابِ أَشْــبَاحَ الكَوَاكِــبِ والبُــدُورِ
ولَمَحْــتُ يَــا إِقْبَــالُ أَرْبَــابَ الفَــصَاحَةِ والــسَّرِيرِ
ورَأَيْــتُ فــي ذَاكَ اللِّقَــاءِ مَلَامِــحَ الــشَّعْبِ الهَــصُورِ
ورَأَيْــتُ طَلْعَتَــكَ الْبَهِيَّــةَ وَهْــيَ وَاضِــحَةُ الظُّهُــورِ

* * *

عَــزَّامُ هَــذا مُنْتَهَــى جُهْــدِي، تَجَــاوَزْ عَــنْ قُــصُورِي
واللهِ مَــا أَنَــا غَيْــرُ تِلْمِيــذٍ لإِقْبَــالٍ، صَــغِيرِ
أَهْــوَى الْعُــلَا وَيَهُزُّنِــي لِلْمَجْــدِ شَــوْقٌ فــي ضَــمِيري
فَإِلَيْــكَ يَــا عَــزَّامُ فِــي الْفِــرْدَوْسِ مَــا أَمْلَــى شُــعوري
إِقْبَــالُ فِــي مِحْــرَابِ قُرْطُبَــةٍ يُــسَبِّحُ لِلْقَــدِيرِ

قرطبة – إسبانيا ١٩٦٠



في قَصْر الحَمْراء

كانت غرناطة آخر الحواضر الأندلسية التي سقطت في يد الأسبان، وبسقوطها طويت صفحة العرب في الأندلس، وغابت شمس الإسلام. وكان سقوطها في سنة ١٤٩٢، أي منذ أربعمائة وثلاثة وسبعين عاماً. لذلك فإنها تحتفظ بكثير من المظاهر الأندلسية، التي لا يجدها السائح في المدن الأندلسية الأخرى، ويكفي غرناطة فخراً أنها تحتفظ بقصر الحمراء، هذا القصر الخالد الذي بقي برهاناً على عظمة العرب في هندسة المباني، يحج إليه الأوروبيون والأمريكيون سنوياً، فيعيشون في جو أندلسي أصيل، وقد تفنن كثير من كتابهم في تأليف الكتب المطولة والقصص الممتعة عن هذا القصر، وفي مقدمتهم الكاتب الأمريكي واشنطن ايرفنج الذي كتب «فتح غرناطة» و«قصص الحمراء».

وقد دخلنا هذا القصر الأندلسي، والربيع ينشر عليه حلله الزاهية، ورائحة الزهور تنعش النفوس الحائرة التي تجول في ربوع القصر المنيع. وكم كنت أتمنى أن ألتقي في جنباته بأبناء محمد بن الأحمر،

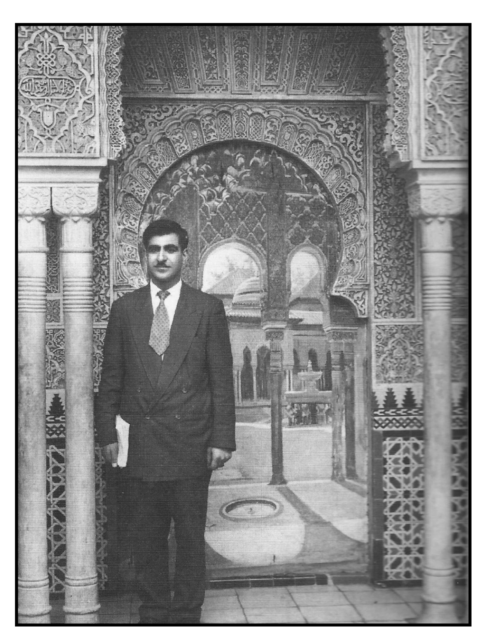
ويوسف أبي الحجاج، وأبي الوليد إسماعيل، وغيرهم من ملوك بني نصر، أصحاب هذا القصر وحكام غرناطة. ولكنني – وآسفاه – لم أجد فيه إلَّا سواحاً من أقطار أوروبا وأمريكا، أتوا لمشاهدة آثار الملوك. ألا سامَح الله أبا عبدالله، محمد بن علي بن نصر، فقد سلم غرناطة إلى الأسبان تسليمَ المستضعف المسكين، وهاجر إلى فاس في المغرب، وأخذ يبكي مجده الآفل، وملكه المضاع، حتى توفي بعد خمسين سنة من الغصص والآلام وما أصدق أحمد شوقي في قوله:

آخرَ العهدِ بالجزيرة كانت … بعد عَرْكٍ من الزمان وضَرْسِ
فتراها تقول راية جيش … باد بالأمس بين أسر وَحَسِّ
ومفاتيحها مقاليدُ مُلْكٍ … باعها الوَارثُ المُضِيع ببَخْسِ
خرج القومُ في كتائب صُمٍّ … عن حِفَاظٍ كموكب الدفنِ خُرْس
ركبوا بالبحار نعشاً وكانت … تحت آبائهم هي العَرْش أَمسِ
رُبَّ بانٍ لهادم وجَمُوعٍ … لمُشِتٍّ ومُحْسِنٍ لمُخِسِّ

ولست أدري كيف أصف لكم هذا القصر الأندلسي البديع، هذا القصر الذي يقول فيه محمد البتنوني في كتابه رحلة الأندلس، وكان قد زارها منذ ثلاثين عاماً: «وإنني أتصور أنك لو جئت بألف واصف، لكان وصف كل واحد مخالفاً لوصف الآخر، ذلك لأن عواطف كل شخص منهم تتغلب عليه بمؤثرات كثيرة متغايرة. فهذا يصفها من حيث جلالها، والآخر يصفها من حيث جمالها، والثالث من حيث ما فيها من العظمة

الفنيـة، والرابـع مـن الجهـة التاريخيـة، والخـامس مـن الهيئـة الطبيعيـة، والسادس من العبرة الزمنية، وهكذا».

إن السائح العربي يجد عبـارة «ولا غالـب إلَّا الله» منقوشـة فـي كـل زاوية من زوايا القصر، وعلى كل جـدار مـن جدرانـه، وهـي عبـارة معبـرة صادقة، ولو كانت غير ذلك لما غُلب ملوك الأنـدلس علـى أمـرهم، حتـى ودعوا جنتهم الضائعة وأصبحوا عبرة الدهور.



أ. فاضل خلف في قصر الحمراء - غرناطة عام ١٩٦٠م

أما ساحة الأسود في قصر الحمراء، فيحـار البـصر بقبابهـا وزخارفهـا وأعمدتها الجميلة، ونافورتها التي تتوسط الأسود، ويقف السائح العربي خاشعاً أمام النقوش الإسلامية والكتابة العربية، ويقف مقهوراً عند قاعـدة النافورة ليقرأ قصيدة ابن زمرك منقوشة عليها ومن أبياتها:

تبارك من أعطى الإمام محمداً ... مغاني زانت بالجمال المغانيا
وإلَّا فهذا الروض فيه بدائع ... أبى الله أن يلقي لها الحسن ثانيا
ومنحوتة من لؤلؤ شقّ نورها ... تَحلّي بمرفض الجمان النواعيا
يذوب لُجَين سال بين جواهر ... غدا مثلها في الحسن أبيض صافيا
ألم تر أن الماء يجري بصفحها ... ولكنها مَدَّتْ عليه المجاريا
وقد أشبهت كف الخليفة إذ غدَتْ ... تفيض إلى الآساد منها السواقيا
فيا من رأى الآساد وهي روابض ... عداها الحَيَا عن أن تكون عواديا

وأما في ساحة الريحان، فقد وقفنا خاشعين أمام عبارة مشجية، وهي: «النصر والتمكين، والفتح المبين، لمولانا أبي عبدالله أمير المؤمنين». وقفنا خاشعين أمام هذه العبارة لأن أبا عبدالله هذا غادر الحمراء إلى الأبد، ليبقى اسمه فقط منقوشاً على جدران القصر وزواياه، ومشفوعاً بالنصر والتمكين والفتح المبين.

أما في قاعة السفراء، فيجد السائح كثيراً من أبيات الشعر منقوشة على الجدران. ويجد كذلك سورة تبارك جميعها، ترصع دائرة القبة. وهذه القبة من بديع الصنع بزخارفها الجميلة ونقوشها الإسلامية.

وقد جلنا جولات حزينة في كل ركن من أركان القصر، كقاعة الأختين، وقاعة الحكم أو العدل، وقاعة بني سراج، وقاعة الملوك، وبقايا مسجد القصر. وقد رأينا في كل من هذه المواقع، أشعاراً عربية

تزين جدرانها، وآيات من القرآن الكريم تضفي عليها جواً من الجلال والوقار.

واسمحوا لي إن لم أستطع الطواف بكم، في جميع قاعات القصر وساحاته في هذه العجالة، لأن القصر فسيح الأركان، تسبح فيه النواظر حتى يدركها التعب والإجهاد، ولكنني لن أغفل قصر جنة العرين، الذي كان يتخذه ملوك غرناطة للراحة والاستجمام في أيام الصيف، وقد أنشئ هذا القصر في القرن الثالث عشر الميلاديّ، وجدده أبو الوليد إسماعيل، كما هو واضح من القصيدة التي قرأناها في إحدى زوايا هذا القصر وهي:

قصر بديع الحسن والإحسان لاحت عليه جلالة السلطان
راقت محاسنه وأشرق نوره وهمت سحائب جوده الهتان
رقمت يد الإبداع في أرجائه وشيا كمثل أزاهر البستان
فكأنّ مجلسه العروس تبرَّجت عند الزفاف بحسنها الفتان
وكفاه من شرف رفيع القدر أن نال اعتناء خليفة الرحمان
خير الملوك أبي الوليد المنتقى من نخبة الأملاك من قحطان
المقتدي بالطاهرين جدوده أنصار خير الخلق من عدنان

* * *



مُحَمَّد بنْ أبـِي عَامر

إنه بطل من أبطالنا الخالدين، الذين سجل التاريخ أسماءهم في صفحاته اللألاءة بحروف من نور. وهذا البطل لا يعرفه إلَّا خاصة المثقفين في الوطن العربي، برغم أفعاله الغرر التي قدمها إلى العرب والإسلام في الأندلس. إن محمد بن أبي عامر، رابع شخصية في تاريخ الأندلس، أعني بعد طارق بن زياد، وعبدالرحمن الداخل، وعبدالرحمن الناصر، إن هؤلاء الأبطال الثلاثة لا يحتاجون إلى زيادة في التعريف، فهم أعلام خفّاقة في دنيا العرب وسماء الإسلام، ولكن أين سيرة فتى الفتيان وفارس الميدان من صدور شباب العرب؟ أين سيرة من حمل الراية الإسلامية في الأندلس بعد عبدالرحمن الناصر، والذي قبض على زمام الأمور فيها بعزمات لا تعرف الملل والكلل؟ سيرة من خاض غمار ست وخمسين غزوة ضد أعداء العرب والمتربصين بالإسلام، ولم تنتكس له راية واحدة في تلك الغزوات، بل نصره الله فيها جميعاً، ووفقه توفيقاً كاملاً تحدث به التاريخ بأفضل لسان؟

أين سيرة القائد الشجاع الذي ذكر الأندلسيين بعبدالرحمن الناصر، ولو أمهله الموت لأعاد إلى الذاكرة أيام بلاط الشهداء، وثأر لعبدالرحمن

الغافقي، الذي استشهد في (بواتي) بالقرب من باريس عاصمة الفرنسيين، وهو يحمل راية الإسلام، أجل أين سيرة محمد بن أبي عامر من أذهان شباب العرب؟ لقد كان جد محمد بن أبي عامر وهو عبدالملك بن عامر، جندياً في جيش طارق بن زياد، وهو من قبيلة معافر باليمن. وقد استقر في الجزيرة الخضراء بعد زواجه، ونبغ بعض من أبنائه في القضاء، وتقلّد بعضهم الوزارة في الأندلس، وبرزت مخايل النبوغ في محمد بن أبي عامر وهو طالب علم في جامعة قرطبة، ورويت عنه قصص تدل على طموحه المبكر، وتطلعه إلى الملك. وبعد أن أكمل دراسته أصبح كاتب عرائض بالقرب من قصر الخلافة ومسجد قرطبة، ثم عيّن في إحدى الوظائف الصغيرة في محكمة قرطبة، ولم يكن محمد بن أبي عامر، صاحب العزمات الوثابة، مُعَدّاً لمثل هذه الوظيفة الصغيرة، بل كانت أحلامه تحلق مع البواشق والنسور، وكانت آماله تسابق آمال الخلفاء والملوك، وكان يتطلع إلى العلا والمعالي، بعزم صادق، وهمة لا تعرف الفتور، ويرنو بكل جوارحه إلى عمل جليل تجد فيه نفسه الكبيرة ما يرضي كبرياءها وطموحها.

وكانت الأقدار تسير في صالح محمد بن أبي عامر، والمجد يمشي في ركباه، لذلك رشحه الحاجب جعفر المصحفي، للقيام بوظيف وكيل لأملاك الأمير عبدالرحمن بن الحكم خليفة الأندلس. وقد وافقت الأميرة صبح أم عبدالرحمن على هذا الترشيح، بعد أن لمحت في ابن أبي عامر مخايل النبوغ والعبقرية، وثبتته في هذه الوظيفة الخطيرة، وبعد أن توفي

عبدالرحمن، أصبح محمد وكيلاً لأملاك الأمير هشام. وهكذا أصبح طالب جامعة قرطبة الطموح بين عشية وضحاها من موظف مغمور بين آلاف الموظفين، إلى رجل مرموق في الدولة، بل أصبح عضواً بارزاً في حاشية الخليفة، ولكن محمد بن أبي عامر – الشعلة المتّقدة من الذكاء والطموح – كان يتطلع دائماً وأبداً إلى معارج السمو، حتى انتدبه الخليفة الحكم، سفيراً إلى المغرب ليبث الدعاية لابنه هشام، ويثبت له ولاية العهد. وقد نجح في سفارته خير نجاح، وأصبحت له منزلة كبيرة في نفس الخليفة وزوجته، لما قام به من عمل جليل لابنهما هشام.

وجاء اليوم الموعود الذي ينتظره محمد بن أبي عامر، جاء اليوم الذي كان يتطلع إليه فتى قرطبة وطالبها الطماح، لقد جاء اليوم الذي ينفق فيه بسخاء لتثبيت دعائم مجده.. فقد عينه الخليفة وكيلاً لبيت المال. وعندما عُقدت البيعة لهشام، كان محمد بن أبي عامر يتولى عدّة مناصب في الدولة، فبالإضافة إلى بيت المال، كان وكيلاً للمواريث والسكة وصاحب الشرطة.

لقد تقلّد محمد بن أبي عامر – إذن – أهم المراكز في الدولة، وطبقت شهرته الآفاق، ونال من المجد ما كان يصبو إليه في أيام دراسته. ولكن هذه الوظائف جميعها إدارية، وهو يطمح أن يكون ربّ السيف وفارس الميدان، وكان يتطلع إلى وظائف الحرب بعد أن دانت له وظائف السلم. وخدمته الظروف بسرعة، إذ أخذ العدو في الشمال يهدد الخلافة، ويغير على بعض أطرافها وثغورها، وعندما تهيأت الأندلس

للقتال رُشح محمد بن أبي عامر لقيادة الجيش، بعد معارضة شديدة من بعض الوزراء بحجة أنه غير متمرس بفنون القتال وشؤون الحرب، ولكنه بطموحه وإخلاصه وقوة شخصيته وعزماته الفولاذية، استطاع أن يسيطر على الجيش ويهزم العدو. ودخل قرطبة منصوراً مظفراً، مما جعل الخليفة ينحّي جعفراً المصحفي عن الحجابة ويعينه في محله.

وبلغ محمد بن أبي عامر مرتبة الحجابة، وهي تعادل رئاسة الوزراء في هذه الأيام، فأخذ ينفق على الجيش بسخاء، ويغزو به القشتاليين في شمالي الأندلس، وينتصر عليهم في كل غزوة. وتوفي الخليفة الحكم، فأصبح ابنه هشام هو الخليفة الشرعي للأندلس، ولكنه كان صغيراً ذا شخصية ضعيفة، فانفرد محمد بن أبي عامر بالسلطة، وحطم كل معارضة، ولقب نفسه بالمنصور، فأصبح يدعى «الحاجب المنصور» وأصبحت الأندلس من أقصاها إلى أقصاها لا تعرف إلَّا محمد بن أبي عامر، الحاجب المنصور، فهو قائد الجيش، وهو وكيل بيت المال، وهو صاحب الشرطة، وهو وكيل المواريث، وهو يقوم مقام الخليفة الذي اعتكف في قصره، لا يعرف غير العبادة والقراءة وشؤونه الخاصة.

ولم يكتف محمد بن أبي عامر، الرجل الحديديّ، بما بين يديه من مجد وعز، بل كان يطمح أن يكون هو خليفة الأندلس الشرعي، ولكنه كان على درجة عظيمة من الذكاء، بحيث كان يعرف مسبقاً عاقبة فعله، وكان يخشى أن تثور عليه الأندلس، لذلك أحجم عن الإقدام على مثل هذا العمل. ومن الجدير بالذكر، أن محمد بن أبي عامر، لم يكن طامعاً

في الخلافة لأجل الجاه والسلطان، بل كان يخشى من متغلب آخر قد تأتي به الأيام، فينافسه ويكون همّه الجاه والسلطان فقط، ولا يهتم بالإصلاح والفتوحات. أما هو فقد شهدت له بالجدارة أفعاله وانتصاراته العظيمة في كل ميدان، واعترف له الغريب قبل القريب، بأنه رجل الساعة بالأندلس بدون منازع، ويكفيه مجداً أنه جعل القشتاليين ينجحرون في حصونهم ومعاقلهم، ويعتصمون بقمم الجبال في أيام حكمه البالغة ربع قرن من الزمان.

وقد كسب محمد بن أبي عامر، حب الجيش واحترامه وثقته، حتى استطاع أن يذل به كل مقاومة في الدولة أو خارجها، ولو مد الله في عمره كما قلنا لطهر الأندلس كلها من القشتاليين بجيشه الذي لا يعرف الخور ولا اليأس. ويكفي المنصور فخراً أنه فتح ربوعاً استعصت على أسلافه، ولم تطأها قبله أقدام المسلمين الفاتحين. وتوفي محمد بن أبي عامر في غزوته الأخيرة في سنة ٣٩٢هـ ودفن في مدينة سالم، في أقصى الشمال، وكتب على قبره:

آثاره تنبيك عن أخباره — حتى كأنك في العيان تراه
والله لا يأتي الزمان بمثله — أبداً ولا يحمي الثغور سواه

وتنفس الأسبان الصعداء بموت المنصور محمد بن أبي عامر، وأخذوا يغيرون على الثغور الإسلامية بكل ما عندهم من قوة، وأخذت الخلافة بعد المنصور، تنهار بسرعة، حتى تمزقت إلى دويلات صغيرة يحكمها ملوك الطوائف، ويدفعون الجزية إلى الأسبان.

وكان محمد بن أبي عامر إلى جانب شجاعته ومهارته في فنون الإدارة والحروب، محباً للعلوم والآداب، وقد شجع الصناعات والفنون على اختلاف أنواعها، وأصبحت الأندلس في عهده ترفل في حلل العزة والمجد. ومن أعماله الجليلة أيضاً إصلاح مسجد قرطبة وتوسيع رقعته، وإنشاء مدينة الزاهرة، وقد نقلت إلينا كتب الأدب شيئاً من شعره ومن ذلك قوله:

رميت بنفسي هول كلّ عظيمة   وخاطرت والحُرّ الكريم يخاطر
وما صاحبي إلَّا جنان مشيع   وأسمر خطّي وأبيض باتر
فسُدْتُ بنفسي أهل كلّ سيادة   وفَاخَرْت حتى لم أجد من يفاخر

وبعد، فقد قال الدكتور عبدالوهاب عزام، في مقال له بمجلة الرسالة في عام ١٩٤٥:

«ليت شعري أين قبر المنصور من قصره من مدينة سالم؟ بل ليت شعري أين تاريخ ابن أبي عامر من صدور شبابنا، وكتب مؤرخينا، وأقلام كتابنا، وقصائد شعرائنا؟ يا شعراء العرب، من ينظم القصيدة الرائعة التي عنوانها «وديعة مدينة سالم».

وقد لبى نداء الدكتور عبدالوهاب عزام، شاعر عربي واحد فقط، وهو يوسف زاهر، الذي قال في قصيدته:

قل للحجيج إذا ما ناله التعب   يا أيها الركب هل أدّيت ما يجب
وهل إلى سالم خَبَّت ركائبكم   وهل هداكم إليها المجد والحسب

وهـل رأيـتم علـى آثارهـا جـدثاً تطوف من حوله الأفلاك والشهب

إلى أن يقول:

لـولا محمّـدٌ وافاهـا علـى عجـل والـريح عاتيـة والمـوج يـضطرب
لغَيَّـر الـريح مجراهـا ولارتطمـت ألواحهـا بـصخور شـادها العطـب
فتـى كبيـر الأمـاني مـن حداثتـه قـد كـان يحلـم بالعليـا ويرتقـب
خمسون موقعة قـاد الجيـوش بهـا مظفَّـراً فـائزاً للنـصر يـصطحب
لـم يثنـه عـن لقـا أعدائـه مـرض ولم يثبِّطْه عـن نيـل العـلا نَـصَبُ

وإننـي اليـوم أضـمّ صـوتي إلـى صـوت فقيـد العـرب والإسـلام، عبدالوهاب عزام، وأقول: يا شعراء العرب من ينظم القصيدة الرائعة التي عنوانها «محمد بن أبي عامر». أو وديعة مدينة سالم.

* * *



نَفـح الطيِّبْ
من غصن الأندلس الرطيبْ

عندما أخذت البقية الباقية من الأندلسيين، تفد على المغرب العربي، بعد أن قررت أسبانيا نفيهم من الأندلس نهائياً في سنة ١٠١٨هجرية، ١٦٠٩ ميلادية، كان في فاس شاب عربي أديب، يرمق هذه المأساة عن كثبٍ بقلب دام ونفس كسيرة، وقد كانت تلك المشاهد المؤلمة التي رآها ذلك الشاب الأديب في تلك الأيام، كافية لتأليف أكبر موسوعة عن الأندلس ونهاية الأندلسيين. أما ذلك الشاب، فهو أحمد بن محمد المَقَّريّ، وأما موسوعته فهي كتاب «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب».

ولد المَقَّريّ في تلمسان، في سنة ٩٩٢هـ وبعد أن تلقى تعليمه الأول فيها، رحل إلى فاس لطلب العلم، وكانت في تلك الأيام عامرة بمدارسها وعلمائها، ولم يمض على المَقَّريّ بعض الوقت في هذه المدينة العلمية، حتى ظهر نبوغه بأجلى مظاهره، وأخذ اسمه يعلو على أسماء زملائه في الدرس والتحصيل، مما لفت انتباه السلطان زيدان، فقلده منصب الإفتاء، ثم نال بعد ذلك منصب الإمامة والخطابة، في جامع القرويين. وقد ألف وهو في فاس، بعض الكتب التي جعلته عضواً بارزاً في المجتمع. ولكن

المقَّرِيّ كان ككل أديب أصيل، يحن إلى الدراسة والاطلاع، وحب المغامرة. فقرر الرحيل إلى المشرق العربي، الذي قرأ عنه كثيراً، وأحب علماءه وأدباءه وشعراءه. وأحب فيه قبل كل شيء مهبط الوحي ومرابع النبي محمد ﷺ.

لقد ذكر المقَّريّ، أن سبب هجرته إلى المشرق، هو أداء فريضة الحج، ولكنه في نفس الوقت، ذكر بين سطور مقدمة كتابه الكبير، أنه فارق فاس، لما لقيه فيها من مضايقات بعض الناس وحسدهم، حيث يقول:

«إنه لما قضى الملك الذي ليس لعبيده في أحكامه تعقب أورد، ولا محيد عمّا شاءه سواه، كره ذلك المرء أو أراد، برحلتي من بلادي، ونقلتي عن محل طارفي وتلادي، بقطر المغرب الأقصى، الذي تمت محاسنه؛ لولا أن سماسرة الفتن سامت بضائع أمنه نقصاً».

وركب البحر في أواخر رمضان، من عام ١٠٢٧، وبعد أيام من المتاعب والآلام التي لقيها في البحر، وصل مصر التي أحبها وأحبته. ثم رحل إلى الحجاز، وهناك حيث اكتحلت عيناه برؤية الصحراء العربية السمحة، التي أنجبت محمد بن عبدالله وصحبه الأبرار، هاجت به الذكريات العزيزة فقال:

«وقد شممنا من أرج تلك الأرجاء الذاكية، واستضأنا بسرج تلك الأضواء الزاكية، ظهر من الشوق ما كان بطن، ولم يخطر ببالنا سكن ولا وطن، ويا سعادة من أقام بتلك البقاع الشريفة وقطن».

ثم زار المقَّرِيّ بيت المقدس، ثم استقرّ به المقام في القاهرة، حيثُ عُهد إليه بالتدريس في الأزهر الشريف، وزار بعد ذلك دمشق. وهناك في عاصمة الأمويين، حيث تشبه المدن الأندلسية المفقودة، تذكر عزّ العرب ومجد الإسلام في تلك الديار، وتذكر أيضاً ذيول المأساة التي شهدها منذ أعوام، في مدينة فاس. فقد عزم على كتابة تاريخ الأندلس، في كتاب لم يسبقه إليه سابق. وعند عودته إلى مصر، عزم على الاستقرار، فتزوج وولدت له ابنة واحدة، ولكن هذا الزواج لم يدم طويلاً، بعد أن توفيت ابنته.

وفي القاهرة عاود التدريس في الأزهر الشريف، وداوم على الكتابة والتأليف، وشرع في عام ١٠٣٧ في الكتابة عن وزير الأندلس وأديبها الشهير، لسان الدين بن الخطيب، ثم أخذ في توسيع الكتاب، بكتابة تاريخ الأندلس، منذ الفتح حتى خروج المسلمين منها. وبعد سنتين، أي عام ١٠٣٩ أخرج المقَّريّ موسوعته الخالدة وهي «نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب»، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب».

وقد قسم المقَّريّ كتابه إلى قسمين، تكلم في القسم الأول منه، عن وصف بلاد الأندلس وفتح العرب لها، ثم خصّ قرطبة ومشاهدها بفصول ممتعة، وتكلم بعد ذلك، عن الأندلسيين الذين رحلوا إلى المشرق، وعن الوافدين إلى الأندلس من المشرق. وفصّل القول كذلك في فضائل أهل الأندلس. ثم تكلم في الختام عن خروج الأندلس من يد المسلمين. أما القسم الثاني، فخصصه للتعريف بلسان الدين بن

الخطيب، فذكر أَوَّليَّته، ثم نشأته وشيوخه، والمكاتبات والمخاطبات منه وإليه، وجاء بشواهد من نثره وشعره، وذكر مؤلفاته وتلاميذه وأولاده.

إن كتاب نفح الطيب، خلّد المقَّريّ على الأيام، وخلّد كذلك لسان الدين ابن الخطيب، وشهره في عالم الأدب والتاريخ، لأن المؤلف قرن اسمه باسم الأندلس التي يحبها ويحن إليها كل عربي يشجيه تاريخها وعلومها وآدابها، وقد اعتمد المقَّريّ على كتب فقدت على مرور الزمن، لذلك فمنزلة نفح الطيب، عزيزة في نفوس الباحثين، عرباً أو مستشرقين. وإن من أوثق الدلائل على حب المقّريّ وإعجابه بلسان الدين بن الخطيب – بالإضافة إلى الجزء الكبير الذي خصصه له من كتابه، – هذه الأبيات الصادقة التي يقول فيها:

ليت شعري أيّ العبارات توفي واجب ابن الخطيب مما أروم
وهو يدعى لسان دين وناهيك افتخاراً به تتم الرسوم
فبأيّ الحُلَى أحلِّي عُلا مَنْ نالَ فضلاً روتْه عُرْبٌ وروم
وعلى الفرض: ما الذي انتحي منه لدى الوصف أن يخصّ العموم
ألحفظ قد ارتوى من معين لصواب عليه كل يحوم
أم لفهم يستخرج الدرّ غوصاً من بحار يخشى بها من يعوم
أم لفكر مؤلّف في فنون عن دهاء به تداوى الكُلُوم
أم لنظم كأنه جوهر السلْك غلا قدره على من يسوم
تتباهى به الصدور حليّاً وتروق العيونَ منه نجوم

أم لنثـــر وَافَـــى بـــسحر بيـــان فهـــو كـــالروح والمعـــاني جـــسوم
أم كخـــطّ منمـــنم فـــاق حُـــسْناً مثـــل وَشْـــى تلـــوح منـــه الرُّقـــومُ

وللمقَّريّ كتب أخرى كثيرة، أربت على العشرين، كأزهـار الريـاض، وروض الآس، والجُسمان في أخبار الزمـان، ولكنهـا مجهولـة حتـى لـدى خاصة المثقفين، لأن أنوار نفح الطيب، حجبت بقيـة كتـب المقَّـريّ عـن الأنظار، فسحب عليها الزمان ذيول الفناء والنسيان.

وتوفي المقَّريّ في القاهرة، في سنة ١٠٤١ هجرية، ودفن في المدينة التي ألَّف فيها كتابه الخالـد، وفـي المدينـة التـي طيّـرت صيته فـي آفـاق العروبة والإسلام.

* * *



في ضيافة ابن زيدون

كنت وأنا أجوس خلال الديار في عروس الأندلس أشبيلية، أبحث عن مرابع شاعر الأندلس ووزيرها الأديب، أحمد بن عبدالله بن غالب بن زيدون. ولكن أين مرابع ابن زيدون من ثرى الأندلس، بل أين مرابع العرب من ذلك الفردوس المفقود؟ أكان لزاماً عليّ أن أعثر على مرابع الشاعر؟ بل أكان لزاماً علي أن أعثر على قبره في أشبيلية؟ لقد درست مرابع شعرائنا وقبورهم في ديار العرب نفسها، أفيكون عجباً أن يُعَفِّيَ الزمان على مرابع أجدادنا وقبورهم في الأندلس؟ ومهما يكن الأمر فقد كنت أبحث – عبثاً – عن آثار ابن زيدون في سكك أشبيلية ودروبها، وكنت أبحث بدون طائل، عن قبره في ضواحي أشبيلية وسهولها المنعزلة. لم أعثر إذن على آثار ابن زيدون أو قبره، ولكنني كنت أسمع في آفاق أشبيلية دَوِيّ أشعاره، وصدى ألحانه، ورجع أغاريده، فتؤنس غربتي، وتقوم بواجبات الضيافة في تلك الربوع، وقد كنت أترنم بألحان ابن زيدون في المدينة التي أحبها وأحبته، وفي المكان الذي دفن فيه. لقد كنت أترنم بأشعاره، وأستعيد في الذاكرة أيامه الزاهرة، وكنت أخفف الوطء امتثالاً لنصيحة أبي العلاء المعريّ، لكي لا أسيء إلى بقايا

ابن زيدون، وبقايا أجدادنا الذين عمروا تلك الديار. ليت شعري أكانت بقايا ابن زيدون تسمعني وأنا أردد أشعاره؟ بل ليت شعري أكانت روحه ترفرف حواليّ وأنا أسير وئيداً فوق ثرى أشبيلية؟ وهل كان يسمعني وأنا أترنم برائعته الخالدة التي يقول فيها:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا ... وناب عن طيب لقيانا تجافينا
بِنْتُمْ وبِنَّا فما ابتلّت جوانحنا ... شوقاً إليكم ولا جفَّتْ مآقينا
تكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضي علينا الأسى لولا تأسّينا
حالت ـ لفقدكم ـ أيامنا فغدت ... سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
إذ جانب العيش طَلْقٌ من تألُّقنا ... ومربع اللَّهْو صافٍ من تصافينا
وإذ هَصَرنا فنون الوصل دانية ... قطافها فجنينا منه ما شينا
ليسق عهدكم: عهد السرور، فما ... كنتم لأرواحنا إلَّا رياحينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا ... إذ طالما غيَّر النأيُ المحبينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً ... منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
يا ساريَ البرقِ غادِ القصرَ واسقِ به ... من كان صرف الهوى والود يسقينا
وأسأل هنالك عل عنَّى تَذَكّرنا ... إلْفاً تَذكُّره أمسَ يُعنِّينا
ويا نسيم الصبا بلِّغْ تحيتنا ... من لو على القرب حَيًّا كان يُحْيِينا

أكان ابن زيدون – إذن – يصغي إليَّ وأنا أروي بقاياه في التراب، ببرد من قصيدته الخالدة هذه، التي نظمها بعد أن باعد البين بينه وبين حبيبته وَلَّادة بنت المستكفي أديبة الأندلس وشاعرتها المجيدة؟ أعتقد

أن روحه كانت تصغي إليّ، لأنني كنت أحس بالطمأنينة والراحة النفسية، وأنا أجول في أشبيلية بحثاً عن مرابع الشاعر وقبره، وكنا في أيام الربيع، حيث تضفي الطبيعة الساحرة على أشبيلية الحسناء حللاً من البهجة والسرور، وحيث يروي نهر الوادي الكبير الضاحك، بقايا ابن زيدون في ثرى الأندلس. وكانت زيارتي لأشبيلية قبل زيارتي لقرطبة، لذلك كان شوقي إلى عاصمة الأندلس، كشوق ابن زيدون وهو يحنّ إليها في أحد موشحاته حيث يقول:

سقى جنبات القصر صوب العمائم

وغنى على الأغصان ورق الحمائم

بقرطبة الغراء دار الأكارم

بلاد بها شق الشباب تمائمي

وأنجبني قوم هناك - كرام

وحيث يحنّ إلى قرطبة في موشح آخر فيقول:

أقرطبة الغراء هل فيك مطمع

وهل كبد حرّى لبينك تنفع

وهل لليالك الحميدة مرجع

إذ الحسن مرآى فيك - واللهو مسمع

وإذ كنف الدنيا – لديك - موطّأ

ومررت في تجوالي بمركز للشرطة، فتذكرت ابن زيدون وهو سجين

في قرطبة، بعد اتهامه بالتآمر، على أبي الحزم محمد بن جهور، صاحب قرطبة. وكان ابن زيدون من الذين أقاموا لهذا الوزير قواعد الملك، ومهدوا له سبيل الحكم على أنقاض الدولة الأموية، وبعد انهيار حكم بني حمود العلويين – وتنص التهمة على أن ابن زيدون، حاول مع غيره من الثائرين ضد ابن جهور، إعادة بني أمية إلى الحكم. فقبض عليه وأودع السجن. وهناك في زنزانته المظلمة، نظم عدة قصائد يرجو فيها ابن جهور، أن يعفو ويطلق سراحه، ولكن لم يفلح الرجاء ولم تشفع القصائد، ومنها هذه الأبيات:

قل للوزير وقد قطعت بمدحه　　زمناً فكان السجن فيه ثوابي

لا تَخْشَ في حقي بما أمضيته　　من ذاك فيَّ ولا تَوَقَّ عتابي

لم تُخْطِ في أمري الصواب موقِّعاً　　هذا جزاء الشاعر الكذاب

ومررت بقصر أشبيلية، وقد بناه الموحدون – كما يذكر بعض المؤرخين – على أنقاض قصر المعتمد بن عباد، فتذكرت ابن زيدون وأيامه الزاهرة، في كنف آل عباد، بعد أن فرَّ من السجن في قرطبة، واحتمى بالمعتضد والد المعتمد، وكان ملك أشبيلية في تلك الأيام فاستقبل الملك ابن زيدون وأكرم مثواه، وعينه في الدولة، مما أطلق لسان الشاعر بالشكر والثناء ومن ذلك قوله:

أعباد يا أوفى الملوك بذمّة　　وأرعاهمُ عَهْدا وأطولهم يدا

تباينت في حاليك: غرت تواضعاً　　لتستوفي العليا وأنجدت سؤددا

وبعد وفاة المعتضد بالله، تولى زمام الأمور في أشبيلية، ابنه الشاعر

الأديب، المعتمد بن عباد، فزادت أواصر الحب بين الشاعرين، وكانا يتراسلان الشعر في كثير من المناسبات، وكان ابن زيدون يلحّ على المعتمد في توسيع رقعة ملكه، بالاستيلاء على قرطبة والقضاء على ابن جهور. فكان له ما أراد، وأصبحت قرطبة عاصمة ملك آل عباد، وأتى اليوم الذي رجع فيه الشاعر المفتون إلى مسقط رأسه، ومسرح نشأته ومرابع طفولته وأحبابه، وصار ابن زيدون يجدد ذكرياته القديمة التي كادت تطويها الأيام. وبعد أن تقدّمت السن بابن زيدون، وكثر من حوله الواشون، بعثه المعتمد إلى أشبيلية، حيث توفي بين عشاق أدبه وشعره، وحيث دفن فيها في ١٥ رجب سنة ٤٦٣. وقد درس قبر ابن زيدون، ومحيت آثاره، ولم يبق ما يذكر زائر لأندلس اليوم بالشاعر، سوى أشعاره التي تدوي في الآفاق، دليلاً على شاعريته الأصيلة وفنه الخالد.

وقد ألقيت نظرة أخيرة على مرابع ابن زيدون القديمة، قبل وداع أشبيلية، وتمثلت بأبياته المشهورة التي يقول فيها:

ولما التقينا للوداع غديّة ... وقد خفقت في ساحة القصر راياتُ

وقُرِّنت الجُرْدُ العِتاق وصفَّقت ... طبولٌ ولاحتْ للفراق علاماتُ

بكينا دماً حتى كأن عيوننا ... لجَرْي الدموع الحُمْر فيها جراحاتُ

وهكذا قضينا وقتاً في ضيافة شاعر الأندلس ووزيرها الأديب، ابن زيدون، في ربوع أشبيلية الجميلة.

* * *



أعوام المجد في حَيَاة
المعتمد بنْ عَبَّاد

كانت أعوام البؤس الأربعة الأخيرة من حياة المعتمد بن عباد ملك أشبيلية، هي الفترة الحاسمة التي قررت مصيره وجعلت له مكانة مرموقة في عالم الأدب، وأكسبته عطف الأدباء والشعراء والمؤرخين عبر العصور، وهذه الأعوام الأربعة هي تلك الأعوام التي قضاها سجينا وفي أسوأ حال في مدينة أغمات بمراكش، لذلك فإنني أعتبر أعوام البؤس هذه، هي نفسها أعوام المجد بالنسبة إلى المعتمد بن عباد.

ويذكر لنا بعض المؤرخين، ومنهم الفتح بن خاقان في كتابه قلائد العقيان أن المعتمد حاول الانتحار عندما استولت جيوش يوسف بن تاشفين على أشبيلية وحاصرته في قصره، إلَّا أن بقية من تُقًى ودين. منعته من الاستمرار في محاولته، فوقع أسيراً في قبضة المرابطين.

ولو كان المعتمد قد قضى على نفسه بيده في تلك اللحظات الحاسمة من تاريخه لأسدل عليه التاريخ ستاراً قاتماً من النسيان، ولما ذكر في كتب الأدب والتاريخ إلَّا بالجوانب التي تتهمه وتدينه، وعلى رأسها استنجاده بالأسبان، عندما أخذ حامي حمى الإسلام يوسف بن تاشفين يثل عروش ملوك الطوائف، ليقيم دولة عربية واحدة، تشمل

المغرب العربي والأندلس، وترهب العدو المتربص في الشمال. ولكن وقوع المعتمد بن عباد في الأسر، ونفيه إلى المغرب، وسجنه بتلك الصورة المفجعة التي سجلها لنا المؤرخون، جعلت التاريخ يعطف عليه، ويضفي عليه المحاسن، ويسلبه السيئات، وأعوام البؤس الأربعة هذه هي التي طيرت صيته في الآفاق، وأذاعت أنباءه، وضمنت خلوده على الأيام.

فالمعتمد بن عباد بعد أن كان ملكاً عظيماً، وسيداً مطاعاً في الأندلس، غدا في محبسه بمراكش يرسف في أغلاله وأطماره البالية، وصار يندب ملكه المضاع وعزّه الزائل، ومن ذلك قوله:

غريب بأرض المغربين أسيرُ
سيبكي عليه منبر وسريرُ
وتندبه البيض الصوارم والقنا
ويَنهلُّ دمع بينهن غزيرُ
مضى زمن والمُلْك مستأنس به
وأصبح منه اليوم وهو نفورُ
برأي من الدهر المضلّل فاسد
متى صلحت للصالحين دهورُ؟
فيا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة
أمامي وخلفي روضة وغديرُ

بمنبتــــة الزيتـــون مورقـــة العـــلا

يغنـــــي حمــــام أو تـــــرن طيـــورُ

وكان المعتمد في أيام ملكه تفد إليه الوفود في أشبيلية، وتتسابق إليه الجموع للتهنئة بالأعياد، وكان هناك من يهنئه أيضاً في محبسه بأغمات بحلول العيد، فقد روي أن بناته دخلن عليه في سجنه للسلام عليه في أحد الأعياد وهن حفاة عراة، إلَّا من أطمارهن البالية، وقد ذهبت بنضارة وجوههن تقلبات الأيام وجور الزمان، وكن قد اضطررن في منافهن لغزل الملابس، والعمل عند سراة القوم لإعالة أنفسهن، فما كاد المعتمد يراهن في تلك الحالة المزرية حتى ثارت نفسه وفاضت بهذه الأبيات:

فيمـا مـضى كنـت بالأعيـاد مـسرورَا

فجـاءك العيـد فـي أغمـاتَ مأسـورَا

تـرى بناتـك فـي الأطمـار جائعـة

يغـزلن للنـاس مـا يملكـن قطميـرا

بـــرزن نحـــوك للتـــسليم خاشـــعة

أبـــصارهن حـــسيرات مكاســـيرا

يطـأْن فـي الطـين والأقـدام حافيـة

كأنهـــا لـــم تطـــأ مـــسكاً وكـــافورا

لا خـدّ إلا ويـشكو الحـوب ظـاهره

ولــيس إلّا مــع الأنفــاس ممطــورا

قــد كــان درك إن تــأمره ممتــثلاً

فَــردَّكَ الــدهر منهيّــاً ومــأمورا

مـن بـات بعـدك فـي مُلْـك يُـسَرُّ بـه

فإنمــا بــات بــالأحلام مغــرورا

وقد مرَّ أبـو بكـر بـن اللبانـة الـشاعر في أحـد الأسـواق، فـرأى فخـر الدولة، وهو من أولاد المعتمد، في حانوت صائغ، وكان ينفخ فـي الكيـر ليشعل النار، وقد علا الرماد وجهه وملابسه. وكان ابن اللبانة أحد شـعراء المعتمد في أيام مجده، فساءه ما رأى، وتذكر أيام مليكه الزاهرة، ففاضت نفسه بقصيدة مؤثرة، يخاطب فيها ابن المعتمد ويقول فيها:

يــد عهــدْتك للتقبيــل تبــسطها

فتــستقلّ الثريــا أن تكــون فمــا

يـا صـائغاً كانـت العليـا تـصاغ لـه

حليـا وكـان عليـه الحلـي منتظمـا

للنفخ في الصور هول ما حكاه سوى

هــول رأيتــك فيــه تــنفخ الفحمــا

وددت إذ نظـرت عينــي إليــك بــه

لـو أن عينـي تـشكو قبـل ذاك عمـى

ولعل أروع ما نظمه المعتمد بن عباد في أيام بؤسه قصيدة مؤثرة خاطب بها قيوده الرهيبة، كانت هذه القيود قد أثرت في جسمه ونهشت من لحمه. وما كان للمعتمد سمير في لياليه السوداء سوى الشعر يرسله من أعماقه، فتارة يصور بؤسه، وتارة يحن إلى أمجاده الغاربة، وطوراً يردّ تحية الشعراء، وطوراً يتوسَّل إلى الله ليأتيه بالفرج، ويقول في قصيدته التي يخاطب بها قيوده:

قيدي ! أما تعلمني مُسْلِمَا

أبيت أَن تشفق أو تَرحما

دمي شراب لك واللحم قد

أكَلْته لا تهشم الأعظما

ارحم طفيلا طائشا لبُّه

لم يخش أن يأتيك مسترحما

وارحم أُخيّات له مثله

جرَّعتهنّ السمّ والعلقما

منهن من يفهم شيئاً فقد

خفنا عليه للبكاء العمى

والغير لا يفهم شيئاً فما

يفتح إلَّا لرضاع فما

بمثل هذه الأبيات التي نظمها المعتمد بن عباد في أعوام بؤسه نال

المجد والخلود على الأيام، وقد توفي في محبسه وهو يرشف آخر قطرة من مرارة الحياة، بعد أن شرب كأس العز حتى الثمالة في أيام مجده في عروس الأندلس أشبيلية، وقد كانت وفاته في سنة ٤٨٨ هجرية، أي أن أعوام بؤسه كانت أربعة فقط، وبدون هذه الأعوام الأربعة تعتبر سيرة المعتمد ناقصة، وتاريخه غير مكتمل الجوانب. ونحن إذ نذكر هذا لا ننسى ما للمعتمد، قبل نفيه، من تاريخ حافل بالمآثر، فهو الملك الكريم، والشاعر الشجاع الذي أثنى عليه المؤرخون ثناء عاطراً. وهو أحد أبطال موقعة الزلاقة. ويكفيه شرفاً عبارته الخالدة عندما حذره بعض حاشيته من الاستنجاد بيوسف بن تاشفين حيث قال: «رعى الجمال في أفريقيا، خير من تربية الخنازير في أسبانيا».

وبعد موته بأيام قدم من الأندلس شاعره الوفي أبو بكر بن عبدالصمد، فوقف على قبره وقفة الثاكل الحزين، وألقى قصيدته المشهورة، التي يقول فيها:

مَلِكَ الملوكِ أسامع فأُنادِي
أَم قد عدتك عن السماع عوادِ
لمّا خلت منك القصور ولم تكن
فيها كما قد كنت في الأعيادِ
أقبلت في هذا الثرى لك خاضعا
وجعلت قبرك موضع الإنشادِ

يـــا أيهـــا القمـــر المنيـــر أهكـــذا
يمحـــــى ضـــــياء النَّيِّـــــر الوقَّـــــادِ
عهـدي بملْكـي وهـو طَلْـق ضـاحك
متهلّـــــل الـــــصفحات للقُـــــصَّادِ
أيـــام تخفـــق فوقـــك الرايـــات فـــو
ق كتائـــــب الرؤســـــاء والأجنـــــادِ
والأمــــر أمــــرك والزمــــان مبـــشِّر
بممالـــــك قـــــد أذعنـــــت وبـــــلادِ
والخيـــل تمـــرح والفـــوارس تنحنـــي
بـــــين الـــــصوارم والقنـــــا الميَّـــــادِ

وقبل أن أنهي هذا الحديث، أجد لزاماً عليَّ أن أوضح نقطة هامة في الموضوع، وهي معاملة يوسف بن تاشفين الصارمة للمعتمد بن عباد، تلك المعاملة التي جعلت كثيراً من المؤرخين يلومون ابن تاشفين، ويوجهون إليه مُرّ الكلام، كما فعل ابن الأثير في تاريخه، عند كلامه عن حوادث سنة ٤٨٤، وهي السنة التي نكب فيها المعتمد. وأعتقد أن لهذه المعاملة الصارمة ثلاثة أسباب: أولها أن يوسف بن تاشفين رجل نار وحديد، وغزوات وحروب وهو لا يعامل خصومه إلَّا بمثل هذه المعاملة التي لا تعرف المجاملة والأمور العاطفية. وقد كان موقف المعتمد العدائي ضد يوسف بن تاشفين عند استنجاده بالأسبان، كافياً لإثارة نقمته وعدم إظهاره أي معنى من معاني الرأفة والشفقة.

والسبب الثاني أن يوسف بن تاشفين ربما نسي المعتمد في غمار بطولاته الحاسمة، لأنه كان يحارب أغلب جيوش أوروبا، وعلى رأسها فرنسا وإيطاليا وأسبانيا الشمالية التي تدفقت على الأندلس لصد التيار العربي الجديد، بقيادة يوسف بن تاشفين الذي أعاد إلى الأذهان سيرة سلفه العظيم محمد بن أبي عامر. لذلك فإن رجلاً يحارب أمم أوروبا مجتمعة لا يشغل ذهنه فرد واحد وإن كان في منزلة المعتمد. أما السبب الثالث فهو اطمئنان يوسف بن تاشفين للمكانة السامية التي احتلها من نفوس المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وفي مقدمتهم الإمام أبو حامد الغزالي، الذي أفتاه بخلع ملوك الطوائف ومنهم المعتمد بن عباد.

❋ ❋ ❋



الصفحة الأخيرة
من تاريخ الأندلس

جاء في أحاديثنا الماضية عن الأندلس ذكر أبطالنا الخالدين، الذين أرسوا قواعد دولة العرب والإسلام في الأندلس، أولئك الأبطال الذين اقترنت أسماؤهم بالنصر الباهر والفتح المبين، كطارق بن زياد، وعبدالرحمن الداخل، وعبدالرحمن الناصر، ومحمد بن أبي عامر، ويوسف بن تاشفين، أولئك الأبطال الذين جاءوا في شباب دولة الأندلس، فسرهم الزمان. وهناك أبطال برزوا على مسرح الحوادث، وكانت الدولة في هرمها، فسرهم الزمان مرة وساءهم مرات، كملوك الطوائف والموحدين، وأمراء بني الأحمر، وغيرهم، ولكنْ هناك أبطال مجهولون، أنجبتهم الأندلس بعد أن صوّح روض العرب في تلك الديار، وغابت عنها شمس الإسلام.

أجل لقد ظهر في الأندلس أبطال لم يقدر لهم النجاح، برغم كفاحهم المرير، وجهادهم المتواصل، لقد كانت مرابعهم ضاحكة مستبشرة في عهد الأجداد، وقد زانتها مآثر العرب ومحامد الإسلام، ولكنها غدت في عهدهم موحشة كئيبة، صبغتها الدماء وروّتها الدموع، وألهبت جنباتها نيران الظلم وسعير الاضطهاد.

والآن من هم أولئك الأبطال المجهولون؟

وقبل أن نأتي بحديثهم الشجيّ، لا بد لنا من رجعة إلى الوراء – أي قبل ظهورهم على مسرح الحياة، بستة وسبعين عاماً – لنرى أبا عبدالله الصغير، الأمير محمد بن علي بن نصر، وهو يسلم مفاتيح غرناطة إلى الأسبان. حسب شروط بلغت سبعة وستين، منها – كما يحدثنا المقَّريّ – في كتابه نفح الطيب – تأمين المسلمين في النفس والأهل والمال، وإيواؤهم في أماكنهم ودورهم وربوعهم وعقارهم، ومنها إقامة شريعتهم على ما كانت، ولا يحكم على أحد منهم إلَّا بشريعته، ومنها – كذلك – أن تبقى المساجد كما كانت. وقد وقّع على وثيقة الشروط الملكان فردينان وإيزابيلا، ووضعا اسميهما تحت هذا القسم:

«نؤكد ونقسم، بإيماننا وكلامنا الملوكي، أننا نحافظ ونأمر بالمحافظة على مضمون جميع ما هنا، من كل شيء وكل جزء، الآن وفيما بعد الآن وفي كل آن».

وكان تسليم غرناطة، في ٨٩٧هـ و١٤٩٢م، آخر يوم من أيام الدولة العربية في الأندلس، وقد هاجر الملك المخلوع، وهاجر معه كثير من الأندلسيين. وعزّ على السواد الأعظم، ترك الوطن الحبيب، الذي عاش فيه الآباء والأجداد، لاسيما وقد ضمنت لهم وثيقة التسليم أهم ما يحتاجون إليه في حياتهم، تحت ظل الدولة الجديدة، وهو الأمان وحرية المعتقد. وحرية التنقل، ولكن هل يفي الغالب بالشروط؟ ومن هو الغالب اليوم؟ أنه سليل المغلوب بالأمس، وقد كان في صراع – هو آباؤه

وأجداده – دام ثمانية قرون، لإجلاء الغالب عن أرضه، وقد تم له ما أراد، وأصبح العرب في تلك الربوع، بدون حكومة أو محام، وثارت في نفس الغالب الجديد، ذكريات قديمة، ألهب نيرانها صراع طويل طويل.

وأخذ المتغلب الجديد، يغير نيّاته بسرعة، ولم يتمتع بقايا العرب في الأندلس بالشروط المتفق عليها سوى وقت قصير. ثم بدأ الأسبان ينقضون شروطهم، حتى لم يبق منها شرط واحد يحتمي به المغلوب. وأخذت الغارات على المسلمين، بكل قسوة ووحشية، للتخلي عن دينهم ولغتهم. وأغلقت مدارسهم ومساجدهم، ومنعوا من إقامة شعائرهم الدينية، ومناسباتهم الوطنية. وبعد سبع سنوات فقط، من تسليم غرناطة، أُجبر الأندلسيون على التنصر، ففر من استطاع منهم الفرار، وتنصر الباقون خوفاً من الموت. وفي غمرة هذه الأحداث أحرق الأسبان في ساحات غرناطة أعظم مكتبة عربية في الأندلس، وكانت خلاصة الفكر في ذلك الوطن المفقود.

فأجبر العرب المتنصرون على السكن في أحياء خاصة، وحرم عليهم حمل السلاح، وفرضت عليهم الإقامة الجبرية. وكان جزاء المعارضين منهم، التشريد والقتل، بل لقد كانت المحارق التي أقامها ديوان التحقيق، تلتهم بقايا الأندلسيين بدون رحمة. وتسربت بعض الرسائل التي كتبها أولئك المنكوبون، إلى ملوك وسلاطين المسلمين، في المغرب ومصر وتركيا، يطلبون فيها العون والمساعدة، ويرجون فيها وضع حدّ للمآسي التي حلّت بهم. وقد ذهب استنجادهم أدراج الرياح،

وتلاشت صرخاتهم عبر الفدافد والبحار، لأن الأسبان استطاعوا أن يموهوا الحقيقة على ملوك العرب والإسلام، ولأن المسلمين أنفسهم، كانوا في وضع لا يستطيعون معه مقاومة الدولة الأسبانية الناهضة.

ولما لم يتلق أولئك الأندلسيون أية معونة من الخارج قرروا الثورة في سنة ١٥٦٨، أي بعد سقوط غرناطة بستة وسبعين عاماً. وقاد الثورة التي تجاوزت غرناطة إلى أنحاء عديدة من مدن الأندلس، شاب جريء من أحفاد العرب المسلمين اسمه فرناندو دي قالور. وتعاهد مع قومه على الجهاد في سبيل الله والدين والوطن. ثم تبرأ من اسمه الأسباني، وتسمى باسم (محمد أمية: صاحب الأندلس).

وانفجرت الثورة، بقيادة محمد بن أمية، ولم يكن هذا القائد – الذي لم يتجاوز العشرين – من المضطهدين، بل كان يختال في حلل العز والنعيم، لأنه كان مستشاراً ببلدية غرناطة، ولكنه تزعم الثورة، لأنه كان يتمزق من الألم، وهو يرى بقايا قومه في أسوأ حال وأضيق عيش، وكان قلبه يقطر دماً، وهو يشهد الحوادث المريعة التي توالت على قومه، لذلك وافق على قيادة الثورة، عندما رشحه زعماؤها لهذه المهمة.

واندلعت الثورة في البشارات، جنوبي غرناطة. وقبل أن يرتد إلى الأسبان طرفهم انقض ابن فرج – وهو أحد قواد محمد بن أمية على الأعداء انقضاض الصاعقة، وهو يضع نصب عينيه، سبعين عاماً من الاضطهاد الذي لحق بقومه من الأسبان. فأعمل فيهم مذبحة اهتزت لها أسبانيا. وعندما بلغت أنباء هذه المذبحة، محمد بن أمية أبدى

استياءه الشديد، لأنه كان يستهدف الحكومة فقط. ثم فُصل ابن فرج من القيادة.

وزحفت الحامية الأسبانية الموجودة في غرناطة، على البشارات لتحطيم الثورة، فتصدى لها محمد بن أمية، برجاله الذين تعاهدوا معه على الموت أو الحياة الحرّة الكريمة. وحاول الأسبان أن يجنحوا للسلم، خوفاً من تفاقم الأمر وثورة بقية المدن الأسبانية التي ينتشر فيها بقايا العرب، وكان محمد بن أمية يميل إلى الصلح – كذلك – تجنباً للعواقب الوخيمة التي ستحل بقومه، ولكنّ جنوده الذين ذاقوا الأمرين من السياسة الأسبانية رفضوا الصلح بكل شدة، فتلاقى الجمعان.

ودارت معركة حامية الوطيس بين الجيشين، رجحت فيها كفّة الجيش الأسباني المنظم، وتشتت بقايا الأندلسيين في جبال البشارات، ومن بينهم أهل بيت القائد محمد بن أمية، الذي اعتصم بالجبال مع فلول جيشه.

هذا ما كان من أمر المعركة في البشارات فما هو أمر غرناطة التي تضم ألوفاً من المورسيكيين؟ لقد خشي الأسبان من حي البيازين العربي الذي كان مركزاً للتجمع المورسيكي، لذلك اتخذت تدابير صارمة ضدهم، لكي لا يفلت منهم أحد لنجدة الثوار. ونفذ حكم الإعدام في كثير من أعيانهم، مما جعل الثوار في البشارات ينحدرون من مخابئهم في كهوف الجبال لمواصلة القتال، والتف الأندلسيون مرة أخرى حول قائدهم الجريء محمد بن أمية، الذي أرسل إلى القسطنطينية، والمغرب

العربي في طلب النجدة، فلباه أهل المغرب. وجالية تركية كانت موجودة في المغرب العربي.

وصدم محمد بن أمية الأسبان صدمة عنيفة، مزقت جموعهم المحتشدة في سهول البشارات، وقد كان في عزمه الزحف على غرناطة. ولكنه خرّ صريعاً في ظروف غامضة، وطويت صفحة «مشرقة» من صفحات البطولة والإيثار. وقد كانت سبل العيش ميسرة له ولأولاده من بعده في أسبانيا، ولكنه نبذ المركز في سبيل دينه الإسلامي القديم، ولغته العربية الضائعة، وقومه المنكوبين. فخسر مستقبله المعيشي، وقضى على أهل بيته بالتشرد والحرمان والمصير المجهول، ولكنه سجل في قلب التاريخ أروع صفحات البطولة والفداء، ومن المؤسف أن هذا البطل العظيم ليس له أي ذكر في تاريخ العرب، ولولا ما كتبه عنه بعض المؤرخين الأوروبيين، وفي مقدمتهم الكاتب الإنجليزي، الدكتور «لي» لأسدل عليه التاريخ ستاراً قاتماً من النسيان.

وقد بايع الأندلسيون بعد مصرع محمد بن أمية، مجاهداً آخر، لا يقل عن سلفه الراحل شجاعة وإيماناً بدينه ولغته وقومه، وكان يدعى ابن عبّو. وعندما تقلَّد زمام الأمور، تسمى بمولاي عبدالله بن محمد. وعندما رأى الأسبان صلابة الأندلسيين وعزمهم على مواصلة القتال، خافوا من ثورة أهل البيّازين بغرناطة، فشتتوهم في أنحاء عديدة من أسبانيا، فما كان من القائد الجديد، مولاي عبدالله بن محمد إلَّا أن زحف بجموعه الثائرة نحو غرناطة، ليوقف عمليات التشريد عند حدها،

واستطاع في الجولات الأولى أن ينتصر على طلائع الأسبان، مما جعل الأندلسيين يتدفقون على معسكره من جميع أنحاء البشارات، ويلتفون حوله ويبايعونه على الجهاد المقدس. وأخذ يغير على ضواحي غرناطة. أما الأسبان فأخذوا ينظمون صفوفهم، ويعززون حامياتهم في المناطق المهددة. ثم زحفوا على الأندلسيين، ووقعت بين الفريقين مواقع عديدة، أبلى فيها الأندلسيون بلاء حسناً. وحاول الأسبان وقف القتال بالطرق السلمية، ولكن الثوار فقدوا كل أمل في وعود وشروط الأسبان، فصمموا على مواصلة القتال حتى الموت. وتقدّم الأسبان بجيوشهم نحو الأندلسيين، ففرَّ من استطاع منهم الفرار إلى الجبال، وعبر من استطاع منهم البحر إلى المغرب العربي، وأما الذين وقعوا في قبضة العدو، فقد نالهم البلاء العظيم، ولم يجد الأسبان طريقة للخلاص من المورسيكيين سوى نفيهم إلى خارج أسبانيا، وقد صدر هذا القرار في سنة ١٥٧٠ أي بعد مضي عامين على ثورتهم بقيادة محمد بن أمية. ولكن القرار لم ينفذ، إلا بعد أربعين عاماً.

أما مولاي عبدالله بن محمد، فقد اعتصم بالجبال ليجمع فلوله المبعثرة، وينظم صفوفه الممزقة، ولكن الأسبان اهتدوا إلى مخبئه، ووقعت بينه وبينهم معركة صغيرة فاصلة، قاوم فيها حتى خرَّ صريعاً في ميدان الشرف، بعد أن أدى واجبه نحو دينه ولغته وقومه في الأندلس خير أداء، وبعد أن كتب اسمه في سجل الخالدين.

* * *



القلب الخافق

- ١ -

ليتني أتذكر كل أحداث رحلة الأندلس منذ أن نزلت جبل طارق إلى أن غادرت مدريد، ولكن أنَّى للذاكرة أن تستوعب كل شيء مرَّ عليها مرور الطيف، في رحلة لم تزد على أسبوعين. وقد مرَّ اليوم على الرحلة سبعة عشر عاماً من أعوام هذه الحياة[1]، والذاكرة أحياناً تخون صاحبها في أحداث مرّ عليها يوم أو بعض يوم، فكيف بأحداث مرّ عليها أكثر من ستة آلاف يوم. يا للعجب! مرَّت مرور الشعاع، وتوالت فيها على الذاكرة أمور، استوعبت منها القليل القليل، وتبخر منها الكثير الكثير، فليتني سجلت أحداثها في دفتر خاص لكنت اليوم أغرف منه حديث الذكريات كما يغرف الظمآن من نهر عجاج أو بحر متلاطم بالأمواج ولو كنت أدري أنني سأدون في مقبل الأيام تفاصيل الرحلة ثم أنشرها على الملأ لما فاتني تسجيل وقائعها في وريقات قليلة، تعين الذاكرة في مهمتها، وتمد لها الطريق بعد كل هذه السنوات التي نقلت صاحب الرحلة من

(١) كتبت هذه المقالة في عام ١٩٧٧م.

حال إلى حال، وما هما إلَّا حال الشباب وحال المشيب فالثلاثون غير الخمسين، والشباب غير المشيب، والقلب النابض بالحب والحياة غير هذا القلب المرهق بتكاليف الحياة.

ليتني أتذكر ولكن ألا يكفي ذلك البصيص من النور في جوانب الذاكرة ليسجل بعدسته المكبرة تلك الأشباح التي أصبحت باهتة، فتضحى واضحة الصورة حية المعالم نابضة الشعور؟. ومن مغانم ذلك البصيص من النور، تلك الصورة المشرقة لسائق التاكسي الذي تعرفت عليه بمجرد وصولي إلى جبل طارق. كتبتُ اسمه في مفكرتي ثم ضاعت المفكرة مع ما ضاع من متاعي على مدى كل تلك الأعوام. اسم السائق نسيته إذن، وإن لم أنسَ خلقه وأنسه وأريحيته، إنه شاب، بل كان في ذلك الوقت شاباً في نحو الخامسة والعشرين، نحيف الجسم، وديع الملامح والنظرات، يتكلم الإنجليزية بلهجة أجنبية، فسكان مدينة جبل طارق كلهم يتكلمون الإنجليزية التي يتكلمها الأخ السائق.

ويرجع ذلك إلى أن سكان جبل طارق أصلهم من الأسبان فإذا كانوا قد نسوا لغتهم الأصلية فإن لغتهم المكتسبة لم تستطع أن تمحو من ألسنتهم «اللهجة» أو طريقة النطق القديمة التي كان يتكلم بها الآباء والأجداد.

إن هذا السائق الخلوق أزال عن نفسي كل المخاوف التي زرعها بعض السواح الذين سبقوني إلى جبل طارق سواء بكتبهم كالأستاذ محمد عبدالله عنان في كتابه (الآثار الأندلسية الباقية) عندما تحدث عن

سكان جبل طارق ووصفهم بأنهم قوم بعيدون عن الرقة، مثل غيرهم من سكان الموانئ الذين ينتظرون السائح لاستغلاله إلى أبعد الحدود أم بأحاديثهم التي سمعتها منهم قبل أن أغادر ميناء لندن في اليوم الأول من شهر مارس ١٩٦٠، وعندما وصلت جبل طارق كنت أضع كلام الأستاذ محمد عبدالله عنان نصب عيني، وكذلك كلام الذين حذروني من أهل جبل طارق، وقد كدت أؤمن إيماناً قوياً بكلامهم وكلام الأستاذ عنان، ولكنني بعد أن تعرفت على السائق المهذب ذهب الخوف، وحل محله الاطمئنان، فنقدته الأجرة فشكر وأراد الانصراف إلا أنني طلبت منه أن يعود بعد قليل ليطلعني على معالم المدينة والجبل، بعد أن آخذ نصيبي من الراحة وكذلك زوجتي وابني.

وعاد بعد ساعة، أي في حدود الساعة التاسعة صباحاً فلم يترك بقعة في المدينة أو في الجبل لم يذهب بنا إليها، ولم يترك مربعاً يستحق الذكر إلَّا واطلعنا عليه وعندما حان موعد الغداء ذهب بنا إلى الفندق، وتوجّه إلى بيته، وقد حاولنا أن يتغدى معنا في مطعم الفندق، ولكنه اعتذر بكل لطف.

وبعد الظهر كان أمام الفندق لكي يتم ما بدأه في الصباح، من السياحة والتطواف في ذلك الجبل الجميل الذي ما زال يحتفظ باسم فاتح الأندلس طارق بن زياد.. وكان ذلك السائق هو نفسهُ الذي أوصلنا إلى الحدود في الغد، إلى مدينة «لالنيا» الأسبانية، فكان لي معه وداع مؤثر. وأخبار هذه الرحلة مفصلة في كتاب «سياحات فكرية» فلا حاجة

للتكرار، وحسبي أنني نقلت هنا صورة صادقة لسائق التاكسي الذي ترك في نفسي أطيب الأثر، وجعلني أحن إلى زيارة جبل طارق منذ ذلك الحين، ولكن هل أعثر على ذلك الرجل الشهم مرة أخرى إذا قادني الزمن مرة ثانية إلى جبل طارق؟ إن ذلك الشاب اليوم أصبح على أبواب الأربعين وذلك الشعر الأسود الذي كان يجلل رأسه، غدا اليوم يصارع الشعر الأبيض الدخيل الذي لا يلبث أن يصبح هو رب المنزل بعد معارك قد تقصر أو تطول، وربما توارى ذلك الشاب النحيف من الوجود، فحل محله رجل سمين يلهث، وهو يحاول تسلق الصخور التي كان يقفز عليها كالغزال، منذ سبعة عشر عاماً.

فكيف إذن أعرف صاحبي بعد كل هذه الأعوام، والزمن متقلب بأهله، متغير بطبعه.. فهيهات هيهات.. تلك أيام ذهبت وإذا عادت فإنها تعود بِحُلَّة جديدة، ورونق غريب وأخلاق بينها وبين الأولى من البون ما بين الثريا والعيوق.

فيا أيها الأخ العزيز الذي عاش في قلبي كل هذه السنوات عليك مني ألف تحية وسلام وسوف تبقى في القلب مدى الحياة فإن تلاقينا فتلك إذن مِنّة من منن العزيز الحكيم، وسوف نجدد المودة والإخاء برغم ما صنع الزمان في أبداننا من تشويه وإن لم نَلْتَقِ فتلك أيضاً من منن الخالق الجبار لأن الحنين إليك سيبقى في المكان الأرفع من القلب ما دام هذا القلب ينبض بالحب والحياة.

- ٢ -

ليتني أتذكر كل شيء عن رحلة الأندلس التي تمت في عنفوان الشباب، بل ليتني أتذكر ولو قليلاً من الحوادث التي برزت على مسرح تلك الرحلة بعد أن مضى عليها عشرون عاماً تقريباً. وإذا كانت فصول الرحلة قد تلاشت من الذاكرة وحل محلها صمت مطبق، وعدم في عدم فلا والله يتلاشى بصيص من نور ما زال يضيء دربي في هذه الحياة وهذا البصيص من النور الذي يبحث في جوانب الذاكرة ليقتنص حادثة من هنا وحديثاً من هناك، ولولا هذا البصيص من النور والأمل، لكانت الحياة كلها بالنسبة إليَّ هباء في هباء، وباطلاً في باطل، فمرحى لذلك البصيص من النور الذي يحيي الأمل في النفس؛ فيصبح النور والأمل توأمين يسيران جنباً إلى جنب، ويلازماني في جميع خطواتي التي أخطوها على وجه الأرض.

وبالأمس استنجدت بذلك البصيص من النور، لكي يلقي بأضوائه الكاشفة في حنايا الذاكرة، وبعد شيء قليل من التأمل تلألأ ذلك البصيص من النور، وإذا به يهتف من الأعماق: لقد أتيتك أيها الباحث

عن نفحة الذكريات، أتيتك أيها الهائم في دروب الحياة، أتيتك أيها الشارد في مجاهل البيداء.. أتيتك أيها السابح في بحر من الذكريات.. فها هي ذي إحداها، ها هي ذي إحداها.

وتلفت القلب – كما تلفت قلب الشريف الرضي[١] فإذا بصورة مشرقة من صور الحقيقة تتلألأ أمام بصري، وبصيرتي، وإذا هي تصبح موضوع هذا الحديث من الذكريات.

بالأمس تحدثت عن السائق الإنسان الذي التقيت به في جبل طارق، فأصبحت ذكراه تتوقَّد في القلب، وتزداد توقداً على الأيام، وليس من قبيل المصادفة أن يكون موضوع مقال اليوم سائق سيارة، التقيت به في «مدريد» عاصمة أسبانيا.. مدريد التي كان اسمها «مجريط» في أيام الأندلس الأولى وهذا السائق يختلف عن سائق جبل طارق في عدة أمور ويقف معه على طرفي نقيض، وهو أيضاً نسيت اسمه وإن كان خياله يتوثب أمام عيني وأنا أكتب هذه الكلمات، وإن كانت مودته تشيع في قلبي، فتنير أمامي سبيل الكتابة، وتلطف الجو بنسمات منعشة في هذا الجو الحار، الذي لا يتلطف إلا بشيئين اثنين هما إما مكيفات الهواء التي تدوي في أذني الآن وأنا أخط هذه السطور كما يهدر صوت الطيارة

(١) يقول الشريف الرضي:

ولقد مررتُ على ديارِهُمُو ... وطُلُولُهُمْ بيد البلى نَهْبُ

فوقفتُ حتى ضَجَّ من لَغَبٍ ... نِضْوي وَلَجَّ بعَذْليَ الرّكْبُ

وَتَلَفَّتَتْ عَينِي فَمُذْ خَفِيَتْ ... عَنِّي الطُّلولُ تَلَفَّتَ القَلْبُ

من الداخل، وإما نفحات المودة التي تخفف من حرارة الجو القائظ اللهاب قبل أن يقتحم الأبواب شهر آب.

لقد كان سائق جبل طارق شاباً يتوثب في حدود العشرين وكان سائق مدريد كهلاً يتعثَّر في حدود الأربعين.

وكان سائق جبل طارق نحيف الجسم، ضامر البدن، أما سائق مدريد فكان بدين الجسم ممتلئ البدن إن لم أقل ضخم الجثة.

وكان سائق جبل طارق حييا، ينظر إلى محدثه وهو مطاطئ الرأس ويحدث المستمع إليه وهو زائغ النظرات. أما سائق مدريد فكان جريئاً عركته الأيام وعركها وصارعته وصارعها تلوح على شفتيه ابتسامة فيها من تجارب الأيام شيء كثير.

خرجت مع زوجتي وابني من الفندق في الصباح فكان هذا السائق هو أول من أشرت له بيدي فتوقف وعندما ركبنا معه، اكتشفنا أنه لا يجيد من الإنجليزية إلَّا كلمة «نو» وهي مشتركة مع الأسبانية في ذات المعنى، فهي بالإنجليزية لا، وهي بالأسبانية لا أيضاً، وهذا أيضاً فارق آخر بين هذا السائق وبين سائق جبل طارق. كان ذلك السائق يجيد الإنجليزية وإن كانت بلهجة طارقية خاصة أو بلهجة أسبانية على الأصح.

وأشرت إلى سائق مدريد بأنني أريد معاينة معالم العاصمة الأسبانية، فقال: «سي»، أي: نعم، وانطلق في الطريق وهو يدخل في

حديث مقتضب وبين الفينة والفينة، يخرج يده مؤشراً إلى معلم من معالم مدريد الجميلة.

وبعد ساعة أشرت إليه بأنني أريد شركة الطيران الإنجليزية فقال: «سي» وكانت الساعة التاسعة صباحاً، وبعد قليل أوقف السيارة، وعندما نظرت إلى أعلى وجدت اسم الشركة فوق رأسي فدلفت إلى المكتب وحجزت على طائرة «أليطاليا» إلى روما في مساء نفس اليوم.

ثم انطلقنا في شوارع مدريد وبعد ساعة أشرت إليه بأنني أريد مكتبة فقال: «سي» وأوقف السيارة أمام مكتبة كبرى، فدخلت المكتبة وبقيت زوجتي وابني معه في السيارة وعندما عدت وجدت الجو قد تغير تماماً في السيارة فالسائق الذي كان محافظاً في تصرفاته ومتحفظاً في كلماته، أصبح متحرراً، منطلقاً، متهلل الأسارير، وكانت «المحادثة» حامية بينه وبين زوجتي. هي تتحدث باللغة العربية، وهو يتحدث باللغة الأسبانية... والعجيب أن كلاً منهما كان يفهم لغة الآخر بالإشارة طبعاً. وقبل أن أدخل السيارة وضع يده اليمنى في يده اليسرى وأخذ يهزهما دليلاً على المودة بينه وبيننا فلم أفهم مراده حتى شرحت لي زوجتي السبب، فبطل العجب.. وإليكم القصة كاملة:

عندما دخلت المكتبة.. قال السائق لزوجتي من أين أنتم.. وذلك بالإشارة، فقالت: نحن من الكويت فلم يفهم وحاولت أن تفهمه الحقيقة بدون طائل فقالت له: ناصر ناصر. أي بلاد ينتمي إليها جمال عبدالناصر، فقفز من مقعد السياقة ونزل من السيارة ومد يده مصافحاً

بكل حرارة والدمع يطفر من عينيه، ويؤدي إشارة خاصة بيديه معناها أنه كان مقيداً في السجن بجريمة سياسية وأنه يحب جمال عبدالناصر من القلب.

وفي هذه الأثناء وصلتُ إلى السيارة.. فإذا بالسائق يرسم بيديه علامة الحب المتبادل بيننا وبينه ثم مد يده لمصافحتي وهو يبتسم ابتسامة الرضى والحنان، وأخذ يتكلم عن المسجونين السياسيين وعن سياسة فرانكو وعن جمال عبدالناصر وحرب السويس، وعن إسرائيل والعدوان الثلاثي، كل ذلك باللغة الأسبانية.

وحل موعد الغداء فتوجهنا إلى مطعم في إحدى ضواحي – مدريد وبعد الغداء توجهنا إلى الفندق لأخذ حقائبنا وتسديد قائمة الحساب ثم إلى المطار، وتحول السائق من مجرّد سائق تاكسي إلى صديق عزيز ومحب حميم، ثم ودعنا وودعناه بحرارة، وما زال ذكره الفواح يعطر أرجاء القلب، بعد كل هذه الأعوام التي قاربت العشرين وسوف يبقي هذا الذكر ناشراً أريجه المعطار مدى الحياة ما دام القلب يخفق بالمودة، ويجدد الذكريات.

* * *



أصداء بَعيدة

- ١ -

الزمان ١٢ مارس ١٩٦٠. والمكان: قرطبة عاصمة الأندلس العربية ومقر الخلافة الإسلامية في أوروبا منذ ألف عام.

وهكذا وجدت نفسي في قرطبة قادماً إليها من لندن عن طريق البحر. وفي هذا اليوم بالذات كنت في مسجدها العظيم الذي كان مناراً لأهل العلم، وقبساً منيراً لطلاب المعرفة. كنت في مسجد قرطبة أسامر أرواح المصلين وأناجي خيالات طلبة العلم، وأتلو آيات من القرآن الكريم وأصلي لله رب العالمين، في القلب فقط، لأن المسجد تحوَّل إلى كنيسة منذ سقوط قرطبة عام ١٢٣٦ إلى اليوم، وفقد كثيراً من خصائصه الأصيلة التي كان يتميَّز بها بين مساجد العالم الإسلامي، وإن بقي محتفظاً أيضاً بكثير من ملامحه الإسلامية التي كان عليها في شباب زمانه.

ولعل أول صلاة أقيمت في هذا المسجد، بعد سقوط قرطبة، هي صلاة الشاعر الفيلسوف محمد إقبال، الذي زار قرطبة في سنة ١٩٣٦،

وطلب من بلديتها أن يصلي في مسجدها، فوافقتْ على هذا الطلب كما يقول الدكتور عبدالوهاب عزام في كتابه عن محمد إقبال.

كنت في مسجد قرطبة، وقد أهمني أمر مُؤْرق، وهل هناك أمر أصعب على الإنسان من نفاد نقوده، وهو في بلاد غريبة وفي مدينة تبعد عن العاصمة مئات الكيلومترات، وقد حدث هذا قبل استقلال الكويت وقبل أن تتبادل الكويت مع أسبانيا الدبلوماسيين وكنت أسكن في فندق «أشبيلية» - مع زوجتي وابني – وهو لا يبعد كثيراً عن المسجد «الجامع» الذي كنت أتوسل فيه إلى الله سبحانه وتعالى أن يزيل عني هذه الغمّة في بلاد لا أعرف من لغتها كلمة واحدة، ولا أعرف من أهلها أحداً. وكنت قد أرسلت ثلاث برقيات أطلب فيها النجدة وفحواها «أرسلوا برقياً مائة جنيه إسترليني». كانت البرقية الأولى إلى القاهرة وكانت الثانية إلى الكويت أما البرقية الثالثة فكانت إلى المحامي الإنجليزي السيد «وال» في مدينة كمبردج بإنجلترا. فقد كان لكل نزيل في بريطانيا محام وكان السيد «وال» هو محاميّ. وكنت قبل سفري من بريطانيا إلى أسبانيا قد تركت عنده مبلغاً من المال للطوارئ. وقد جاء وقت الاستنجاد. وقبل أن أتحدث عن نتائج البرقيات ربما طرح القارئ العزيز سؤالاً تقليدياً وهو: كيف نضبت نقودك من جيبك؟ وجوابي هو أن السائح الغربي منظّم في جميع أموره، فإذا خصص للرحلة التي تستغرق أسبوعين مائة جنيه فهو لا يصرف أكثر من هذا المبلغ فلساً واحداً، وإنما يصرف أقل من هذا المبلغ وربما رجع إلى وطنه وهو يحتفظ معه ببقية من هذه المائة جنيه، أما السائح الشرقي فإنه إذا

خصص للرحلة مائة جنيه في الجيب الأيمن فلا بد من مائة أخرى تحمي خطوطه الدفاعية في الجيب الأيسر.

وهكذا تبخَّرت النقود التي كانت معي وقدرها مائتان وعشرون جنيهاً إسترلينياً في أقل من عشرة أيام بسبب التخطيط المعوج في رحلتي تلك، لذلك وجدت نفسي في مأزق حرج في ذلك اليوم الذي نفدت فيه دراهمي، ولم يبق منها سوى «بزتّات» معدودات في جيبي وكان الفندق قد قدَّم قائمة الحساب في الصباح لكي تسدد في المساء.

أطلت الإقامة في مسجد قرطبة وطال معها التوسل إلى الله لإنقاذي من المأزق الذي وقعت فيه. رجعت إلى الفندق فإذا بكاتب الاستقبال يقول لي بلغة إنجليزية ضعيفة جداً: إن البنك «الفلاني» اتصل بنا اليوم منذ قليل وهو يطلب حضورك، فتهللت أسارير وجهي وحمدت الله على السلامة، وهرولت إلى البنك، وبعد تقديم جواز سفري ناولني أمين الصندوق مائة جنيه إسترليني مرسلة من المحامي السيد «وال» في مدينة كمبردج، فتناولتها فرحاً، ورجعت إلى الفندق لتسديد القائمة. ثم غادرت قرطبة في الصباح قاصداً غرناطة التي بقيت فيها يومين ثم إلى مدريد التي لم تطل فيها إقامتي غير يوم واحد لأن شركة (أليتاليا) كان لها رحلة إلى روما بعد ظهر اليوم التالي وكنت قد وصلت مدريد في الليل عن طريق القطار. وإذا لم أغتنم هذه الفرصة ربما احتجت مرة ثانية إلى النقود. ومن روما في نفس الليلة نقلتني طائرة «بي. أو. أي. سي» إلى الكويت. وفي الكويت تنفست الصعداء.

نعـود إلـى برقيـة القـاهرة التـي جـاء جوابهـا وأنـا فـي قرطبـة بهـذه الكلمات «اطلب حوالة من الكويت. من مصر لا يمكن».

أما برقية الكويت فلم يأتِ جوابها إلَّا بعـد أن وصـلت إلـى الكويـت فقد أخبرني صاحب الشأن أنـه تلقـى البرقيـة بعـد ثلاثـة أيـام وأنـه حـوّل برقياً مائة جنيه. ثم ألغى التحويل بعد ذلـك. وعلـى ذكـر برقيـة الكويـت حدث التباس لا بأس من ذكره إذ إنني عنـدما بعثـت مـع مراسـل الفنـدق البرقيات الثلاث إلى البريد أبرق برقية مصر، وبرقيـة إنجلتـرا أمـا برقيـة الكويت فقد عاد بها وهو يقول إن البريد يستفسر عن الكويـت هـذه أهـي الكويت التي في جزيـرة العـرب، أم هـي «الكويتـا» التـي فـي باكستان؟! وهكذا فإن هذه البرقية تعثرت في أولى مراحلها، فلـيس عجيبـاً أن تتعثـر في مراحلها الحاسمة ولو أنني تلقيت مائة جنيه من كل برقية.. لكان لـي إذن منها ثلاثمائة، والثلاثمائة غير المائة في الحساب ولطالت إقامتي فـي أسبانيا التي أحببتها منذ زمن بعيد.. أسـبانيا التـي كانـت الأنـدلس منـذ مئات السنين، والتي فصّلت زيارتي لها في كتابي «سياحات فكرية».

❋ ❋ ❋

- ٢ -

نعود إلى الحديث عن رحلة الأندلس وعن الإفلاس الذي طوقني، وضيَّق عليَّ الخناق.. ولم أنطلق من محبسه، وأتخلص من جاذبيته إلَّا بحوالة البرقية التي وردت من لندن ومن المحامي السيد «وال» بعد أن أجهضت برقية القاهرة وبرقية الكويت.

وقد وعدت بالعودة للموضوع وشرح «التخطيط المعوج» في تلك السفرة، وخلاصة الموضوع أنني عندما كنت في بلاد الإنجليز وعزمت على زيارة الأندلس سألت كثيراً من الأصدقاء الإنجليز وغير الإنجليز عن أسبانيا وعن مستوى المعيشة فيها فأدلى كل منهم بدلوه وأجمع الأغلبية على أن رحلة مثل هذه، لا تكلف أكثر من خمسة جنيهات إسترلينية لليوم الواحد ولثلاثة أشخاص، أي لي ولزوجتي ولابني – وبما أن الرحلة سوف تستغرق عشرة أيام، فخمسون جنيهاً تؤدي الواجب على أكمل وجه، وأضاف الأصدقاء قائلين:

«ولا بأس من إضافة خمسين جنيهاً أخرى إلى الميزانية لتكون مائة جنيه. وفي هذه الحالة أعيش عيشة الأمراء على حد زعمهم لأن فنادق

الدرجة الثانية تقاضي جنيهاً للشخص مقابل المنام والأكل. أما فنادق الدرجة الأولى فتتقاضى جنيهين اثنين.

وكان كلامهم صحيحاً تماماً، ولكن الخطأ الذي وقعت فيه أتى عن طريق آخر، فقد حملت معي كما قلت: مائتين وعشرين جنيهاً، وحزمت حقائبي وتوكَّلت على الله. وغادرت بنا الباخرة العنصرية التابعة لجنوب أفريقيا واسمها – روديسيا الجنوبية – غادرت بنا ميناء لندن متوجهة إلى جبل طارق.

كان معي قبل مغادرة لندن ثلاث حقائب فيها ملابسنا. بعثت بواحدة منها إلى الكويت عن طريق الشحن، وبقيت اثنتان معنا على ظهر الباخرة. وصلنا جبل طارق بعد ثلاثة أيام وكنا في فجر اليوم الرابع نتجول في هذه المدينة الجميلة وسط موجة من الحر هبت علينا فجأة ولست أدري من أين. وكنا في أوائل شهر مارس الذي كانت فيه إنجلترا تثمر ثلجاً وبرداً ومطراً.

وفكرنا.. وفكرنا.. وفكرنا.. ثم اهتدينا إلى مخرج نتخلص فيه من بعض ملابسنا الثقيلة التي كانت عبئاً ثقيلاً على أجسامنا فوضعنا أحسن ملابسنا الربيعية والصيفية في حقيبة واحتفظنا بها لبقية الرحلة. ثم وضعنا جميع الملابس الشتوية في الحقيبة الأخرى التي أهدتها زوجتي إلى سيدة أسبانية كانت تعمل في الفندق واسمه – الفندق الكبير.

ثم غادرنا جبل طارق بعد يوم واحد إلى أشبيلية في السيارة. التي وصلناها عند المساء، وكانت الدنيا باردة وقطرات الغيث تداعب الأرض

ثـم انقلـب اللعـب جـداً، فـانهمر المطـر غزيـراً، كمـا كـان فـي إنجلتـرا وانهزمت موجة الحر، وحل محلهـا طقس شـتوي أوروبـي بـارد. ونـدمنا على ملابسنا الشتوية وترحمنا عليها ولكنْ قيل في المثل: «لا تنـدم علـى خير فعلته قط» لذلك استغفرنا الله، ثم توكلنا عليه. وفي الصباح توجهنـا إلى أقرب محل لبيع الملابس الجاهزة، وكان لا يبعد عن فندق «النخيل» سوى عشرات الأمتار، لكي نحمي أجسامنا من البرد القارس، وقـد كلفنـا ذلك مائة جنيه، تنقص قليلاً أو تزيد.. وهكذا فلم يبق من ميزانية الرحلة إلّا مائة جنيه أما العشرون الأخرى فقد أنفقناها في جبل طارق.

مائة جنيـه وأمامنـا عـشرة أيـام سـوف نقـضيها فـي الأنـدلس كـسواح والسائح غير المقيم، فهناك الفندق وهناك التاكسي وهناك الإكرامية.

وبعد ثلاثة أيام قضيناها في أشبيلية غادرناها في القطار إلـى قرطبـة. وفي القطار تعرفنا على ضابط أسباني شاب يتكلم اللغة الإنجليزيـة وقـد أنستُ به وبحديثه، الذي كان يشوبه لَكْنَـة أسـبانية محببـة، وعلمـت منـه أنه يتقاضى راتباً في حدود عشرين جنيهاً إسترلينيا فـي الـشهر وتـذكرت عند ذلك قول الأصدقاء في إنجلترا بأن مائة جنيـه سـتجعلني أعـيش مـع أهلي في أسبانيا عيشة الأمـراء، فهـذا ضـابط فـي الجـيش الأسـباني وهـو متزوج يعيش على عشرين جنيهاً فـي الـشهر، وعلـى مـدى ثلاثـين يومـاً، فكيف لا أعيش أنا عشرة أيام على مائة جنيه.

وفـي قرطبـة وبعـد خمـسة أيـام نـضبت جيـوبي، وأصـبحت مفلـساً تتقـاذفني ريـاح الأفـلاس، لـولا أن مـنَّ الله علـيَّ بمائـة جنيـه أبرقهـا لـي

المحامي السيد «وال» من إنجلترا فكان فيها الفرج، فرَّج الله كربةَ كلِّ مكروب.

وهكذا فصلت الكلام عن رحلة تمت منذ سبعة عشر عاماً رحلة يقوم بها اليوم سواح من الكويت، وفي جيوبهم الآلاف من الجنيهات، ومع هذا فهم يلاقون نفس المصير الذي لقيته قبلهم ولكن الفرق بين الأمس واليوم هو أن السواح اليوم يجدون الطرق أمامهم ممهدة إما عن طريق التليفون وإما عن طريق التلكس. وهو ما لم أجده في سفرتي تلك، فقد عادت إليَّ إحدى البرقيات الثلاث، بخيبة أمل، والثانية قابلتني بصمت، أما الثالثة فكان فيها الفرج بعد ثلاثة أيام من الصبر الممض، والتَّرقُّب المؤرق، والانتظار المر.

ولكن بالرغم من كل المضايقات التي واجهتني في تلك الرحلة فقد أثرت تأثيراً عميقاً في حياتي وظهرت آثارها وأصداؤها البعيدة في كثير مما كتبت من فصول، بل إنها وجهتني في مسيرتي نحو الحب والخير والنور، ورزقتني القدرة على تحمّل متاعب الحياة، والصبر على مكاره الأيام وغدر الزمان.

* * *



وديعة مدينة سالم

ليت شعري أين قبر المنصور من قصره من مدينة سالم؟
بل ليت شعري أين تاريخ محمد بن أبي عامر من صدور شبابنا وكتب مؤرخينا وأقلام كتابنا وقصائد شعرائنا؟
يا شعراء العرب، من ينظم القصيدة الرائعة التي عنوانها (وديعة مدينة سالم)

عبدالوهاب عزام

صِيتٌ مَدَى الأَيَّامِ طَائِرْ غَمَرَ المَرَابِعَ بالمآثِرْ
أَلْفٌ مِنَ الأَعْوَامِ مَرَّتْ وَهْوَ لألاءٌ وزاهِرْ
مَا نَالَتِ الأَيَّامُ مِنْ صَفَحَاتِهِ عَبْرَ الأَدَاهِرْ
أَيْنَ البَيَانُ لَيَجْلُوَ الذَّهبَ المُصَفَّىٰ والجَواهِرْ
والشِّعْرُ أَيْنَ الشِّعْرُ يَصْدَحُ بالقَيَاثِرِ والمَزَاهِرْ
أَينَ القَرِيضُ لِيَجْلُوَ الأَمْجَادَ... أَمْجَادَ ابن عامِرْ
الحَاجِبِ المَنْصُورِ لَيْثِ العُرْبِ فَخْرِ بَنِي مَعَافِرْ

مَــنْ طَيَّــرَ الرَّايَــاتِ فــي الآفــاقِ فــي طَلَــبِ المَفَــاخِرْ
مَــنْ أَشْــعَلَ العَزَمــاتِ فــي أُسْــدِ المَيَــامِينِ والمَيَاسِــرْ
ومَــضى بِهِــمْ مُتَقَــدِّماً رَغْــمَ الأَعَاصِــيرِ الهَــوَادِرْ
يَحْــدُوه إِخْــلَاصٌ وعَــزْمٌ لَا تُزَعْزِعُــهُ الأَعَاصِــرْ
يَــا شِــعْرُ حَــدِّثْ عنــه وانْــشُرْ قِــصَّةَ البَطَــلِ المُثَــابِرْ
هِــيَ قِــصَّةٌ فــي القَلْــبِ يَجْــدُر أَنْ تُــسَجَّلَ والــضَّمَائِرْ
هِــيَ قِــصَّةٌ لأَلَاءَةٌ تَــذْكي الخَــواطِرَ والمَــشَــاعِرْ
هِــيَ قِــصَّةٌ خَلَّاقَــةٌ فيهــا المَطَــامِحُ والبَــشَائِرْ
يَــا شِــعْرُ هَــاتِ فُــصُولَهَا واصْــدَحْ بِأَمْجَــادٍ زَوَاهِــرْ

*　*　*

للهِ أَنْــدَلُسٌ فكَــمْ جَــادَتْ بِأَبْطَــالٍ عَبَــاقِرْ
هِــيَ تُرْبَــةٌ كَرُمَــتْ فَلَــمْ تُنْجِــبْ سِــوَى زُهْــرٍ مَغَــاوِرْ
وَتَــلَأْلَأَتْ فيهــا البُطُولَــةُ وازْدَهَــتْ فيهــا المَنَــائِرْ
وَتَعَاقَــبَ الأَبْطَــالُ فيهــا يُفْــصِحُونَ عَلَــى المَنَــابِرْ
ويُــسَجِّلُونَ المَجْــدَ لِلْإِسْــلَام دَفَّاقــاً وغَــامِرْ
وغَــدَتْ بِلَادُهُــمُ الجَمِيلَــةُ لِلْحَــضَارَة خَيْــرَ ذَاخِــرْ
لكــنَّ أَحْــدَاثَ الزَّمَــانِ وَهُــنَّ أَرْزَاءٌ جَــوَائِرْ
عَبَــسَتْ فَلَاحَــتْ فِــي الــدِّيَارِ سَــحَائِبُ الفِــتَنِ الغَــوَادِرْ

وتَعَرَّضَــــتْ بِــــيضُ المَرابِـــعِ للمَعَاطِـــبِ والمَخَـــاطِرْ
فــــأَتَى النِّــــدَاءِ مُبَـــشِّرَاً حَقّـــاً بِتَمْزِيـــقِ الـــدَّيَاجِرْ
نــادى لقَــدْ ظَهَــرَ الفَتَــى أَمَــلُ البَــوَادِي والحَوَاضِــرْ
قُرْطُبَّـــــةٌ قَـــدْ أنْجَبَتْـــهُ وَإِنَّـــهُ لِلْمَجْـــدِ سَـــائِرْ
والجَـــامِعُ المَعْمُـــورُ يَـــشْهَدُ لِلْفَتَـــى الحُـــرِّ المُبَاشِـــرْ
فَنُبُوغُـــه فـــي العِلْـــمِ تَوَّجَـــهُ طُمُـــوحٌ لِلْكَبَـــائِرْ
وَمَـضَى الفَتَـى فـي سَـعْيِهِ لَا يَعـرِف اليَـأْسَ المُخَـامِرْ
وَيُـــسَجِّل الغُـــرَّ الجَلَائِـــلَ والزَّمَـــانُ لَـــهُ مُنَاصِـــرْ
والنَّــصْرُ يَمْــشِي فــي الرِّكَــابِ عَلَــى تَــرَانِيمِ المَزَامِــرْ
فَتَلَقَّفَتْـــهُ أَمَاجِـــدٌ لَمَحـــتْ سَـــنَا المَجْـــدِ المُبَـــاكِرْ
وَتَوَسَّـــمَتْ فِيـــهِ شَـــمَائِلَ جَمَّـــةً تَـــأْبَىٰ النَّظَـــائِرْ
وَرَعَـــتْ خُطَـــاهُ وَأَصْـــبَحَتْ تَحْنُـــو عَلَيْـــهِ حُنُـــوَّ سَـــاهِرْ
وَتَعَهَّدَتْـــه فَمَـــا رَأَى غَيْـــرَ التَّجِلَّـــةِ فـــي المَقَاصِـــرْ
فَغَـــدَا يُغِـــذُّ الـــسَّيْرَ فـــي صَـــفِّ الطَّلِيعَـــةِ وَهْـــوَ ظَـــافِرْ
وَإِذا بِلَيْـــثِ مَعَـــافِرٍ يَوْمـــاً عَلَـــى الأَمْـــوالِ آمِـــرْ
وإِذَا بِـــهِ يَـــسْخُو وَطُـــلَّابَ العُـــلَا لِلْمَـــالِ قَـــاهِرْ
وأخـــو المَكَـــارِمِ والقِـــرَى أَبَـــدَ المَـــدَى لِلْمَـــالِ آسِـــرْ
فَتَـــرَاهُ يَبْـــذُلُ مَـــا لَدَيْـــهِ فَـــلَا يَهـــابُ وَلَا يُحَـــاذِرْ

وغَـــدَا نَـــداهُ فـــي سَـــبِيلِ المَجْـــد هَطَّـــالاً ومَـــاطِرْ
وغَـدا ابـنُ عـامرَ فـي الحَمَـى مِـلءَ المَـسَامع والنَّـوَاظِرْ
مُتَلَأْلِئـــاً كَـــالنَجْمِ فـــي أَوْجِ العُـــلَا واللَّيـــلُ عـــاكِرْ
وَغَـــدَا هَـــوَاهُ بِقَلْـــبِ كُـــلِّ مُـــوَاطِنٍ وفَتـــىً مُـــؤازِرْ

* * *

لَكِـــنَّ آمَـــالَ الفَتَـــى كانَـــتْ مُجَنَّحَـــةً طَـــوَائِرْ
كَانَـــتْ تُحَلِّـــقُ فـــي الـــسَّمَاءِ مَـــعَ البَوَاشِـــقِ والكَوَاسِـــرْ
حَتَّـــى أَتَـــى يَـــوْمٌ عَظِـــيمٌ صِـــيتُه فـــي الـــدَّهْرِ طَـــائِرْ
يَـــوْمٌ غَـــدَا فيـــه ابـــنُ عَـــامِرَ قائـــداً وفَتَـــى العَـــسَاكِرْ
أَمَـــلٌ تَحَقَّـــقَ يـــا لَرَوْعَتِـــه لَـــدَى البَطَـــلِ المُغَـــامِرْ
فَمَـــضَى يُطَهِّـــرُ أَرْضَ أَنْـــدَلسٍ مِـــنَ الفِـــتَنِ الثَّـــوائِرْ
وَيُطَـــارِدُ المُتَـــآمِرينَ عَلَـــى الحِمَـــى خَلْـــفَ الـــسَّتَائِرْ
ويُـــصَارِعُ الخَـــصْمَ المُغيَـــرَ بِمَـــشْرَفِيَّاتٍ بَـــوَاتِرْ
لَا النَّـــارُ تُخْمِـــدُ عَزْمَـــه فـــي الحَـــرْبِ إِنْ حَمَيـــتْ دَوَائِـــرْ
كـــلا ولَا حَـــرُّ الحَدِيـــدِ يَنَـــالُ منـــه ولا البَـــواقِرْ
خَمْـــسُونَ مَعْرَكَـــةً يَخُـــوض غِمَارَهَـــا واللهُ نَاصِـــرْ
لَـــم يَنْهَـــزِم فيهـــا ولَا جَـــارَت بِإِحْـــدَاهَا المَقَـــادِرْ
أَعْلامُـــه كانَـــتْ مُرفْرِفَـــةً عَلَـــى بِـــيضِ العَمَـــائِرْ

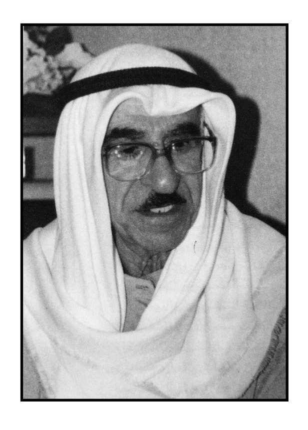
قَـالَ الخَـصيمُ مُـرَدِّدَاً مَـنْ ذَاكَ فـي البَلَـدِ المُجَـاوِرْ؟
أَمِـنْ الخَـوَارِقِ عَزْمُـه أَمْ أَنَّـه فـي القَـوْمِ سَـاحِرْ؟
مَـاذَا أَرَى؟ مـاذَا جَـرَى؟ مـا هـذه الـدُّهْمُ المَـوَاطِرْ؟
فَـأَتَى الجَـوَابُ مُجَلْجِـلاً هـذا فَتـى المَجْـدِ المُفَـاخِرْ
هَـذَا الفَتَـى هِبَـةُ العُـصورِ وهُـنَّ للْجُلَّـى مَـصادِرْ
فـدَعُوا الثُّغُـورَ فَإِنَّهَـا مَـنْ يَـدْنُ مِنْهـا فَهْـوَ خاسِـرْ
قـد جـاءَ والأَمْجَـادُ مِـلْءَ إِهابـه غُـرٌّ هَـوَامِرْ
لِيَـشِيدَ صَـرْحاً شَـامِخاً تَـشْدُو بِـساحَتِه القَيَـاثِرْ
وَيُقِـيمُ دَوْلَـةَ عـامِرٍ ذَاتَ المَنَـارَات العَـوَامِرْ
هِـيَ دَوْلَـةُ الـسّيْفِ المَهِيـب وَدَوْلَـةُ القَلَـمِ المُـسَامِرْ
عَطِـرَتْ بِزَاهِـرَةِ العَوَاصِـمِ قَبْـلَ أَشْـذاءِ الأَزَاهِـرْ
وَتَفَـرَّدَتْ بِنَوابِـغ العُلَمـاءِ أَصْـحَابِ البَـصَائِرْ
حَتَّـى أَتَـى دَاعِـي الخُلـودِ إلـى ابْـنِ عـامِرَ غَيْـرَ عـاثِرْ
فَهَـوَى المجاهِـدُ شـامخاً فـي الـسَّاحِ فـي أَقْـصَى الدَّسـاكِرْ
وغـدت مدِينَـةُ سـالمٍ مَثْـوَى لقائِـدِهَا المُهَـاجرْ

* * *

إيـه مدينـةَ سَـالمٍ ضـمَّ الثَّـرَى أَغْلَـى الـذّخائِرْ
أيـن الودِيعَـة خبِّرِينَـا عـن مواقِعِهـا العـواطِرْ

فَلَقَـــدْ أَتَيْنَـــا للـــدِّيارِ فَلَـــمْ نَجِـــدْ أَحَـــداً بِـــسَامِرْ
كَـــلَّا وَلَا الآثَـــارَ باقِيَـــةً فَتَـــسْتَرَّ الخَـــوَاطِرْ
هَيْهَـــاتَ تِلْـــكَ جِبِلَّـــةُ الأَيَّـــامِ والعُـــصُرِ الغَـــوَابِرْ
ذَهَـــبَ الرِّجَـــالُ فَـــصَارَتِ الآثَـــارُ بَعْـــدُهُم دَوَاثِـــرْ
لَـــمْ يَبْـــقَ مِـــنْهُم غَيْـــرُ ذِكْـــرٍ عَـــاطِرٍ مِـــلْءِ الـــسّرائِرْ
ذِكْـــرٍ سَـــيَبْقَى خَالِـــداً لَا يَـــضْمَحِلُّ وَلَا يُغَـــادِرْ

* * *



السيرة الذاتية

المؤلف: فاضل خلف

- شاعر وقاص ومؤرخ وناقد.
- عضو مؤسس لرابطة الأدباء الكويتيين عند إشهارها في يناير ١٩٦٥م.
- أول من أصدر مجموعة قصصية بالكويت وكانت بعنوان (أحلام الشباب) عام ١٩٥٥م، فحاز بذلك سبق الريادة.
- وُلِدَ فاضل خلف في الكويت عام ١٩٢٧م في منطقة شرق.
- تلقى تعليمه في المدرستين الشرقية والمباركية، وزاوي التدريس في المدارس المباركية والشرقية والصباح ثماني سنوات من عام ١٩٤٤م – ١٩٥٢م.
- عمل في دائرة المعارف من عام ١٩٥٢ – ١٩٥٤م، وفي دائرة المطبوعات والنشر عامين كذلك من عام ١٩٥٤ – ١٩٥٦م.
- في عام ١٩٥٨م سافر إلى بريطانيا واستقر في كمبرج إلى عام ١٩٦١م للدراسة.
- في عام ١٩٦٢ التحق بالسلك الدبلوماسي الكويتي حيث عُيِّن ملحقاً صحفياً في تونس من عام ١٩٦٢ إلى ١٩٧٦م وتعتبر هذه الفترة من أخصب فترات حياته حيث عاش في تونس أربعة عشر عاماً ونبغ في الشعر.

- الأديب فاضل خلف يعتبر الأسبق للاهتمام بالأدب خارج الكويت ومتابعة هذا الأدب ومناقشته، نلمس ذلك من خلال كتابه في الأدب والحياة الذي يتكون من ثماني عشرة مقالة في الأدب والنقد تتجاوز الاهتمام بالأدب الكويتي إلى الأدب الحجازي والعراقي والسوري وأدب الجاحظ والمتنبي.
- ينحدر فاضل خلف من أسرة أدبية، فشقيقاه عبدالله خلف الأديب المعروف وأمين عام رابطة الأدباء وخالد خلف الذي له إسهامات في الأدب والتاريخ.
- نشر العديد من المقالات في الصحف العربية والمحلية منذ الربعينيات إلى اليوم.
- يمتاز الأديب فاضل خلف بصلته بالقصة الإنجليزية حيث قام بترجمة عدد منها، وقدت جاومت كتبه العشرين.
- حصل على جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام ٢٠٠٥م.

أصدر الكثير من الإصدارات الأدبية الهامة منها:

- أحلام الشباب (مجموعة قصصية) ١٩٥٥م.
- في الأدب والحياة (مقالات في الأدب والنقد) ١٩٥٦م.
- زكي مبارك ١٩٥٧م.
- على ضفاف مجردة (ديوان شعر) ١٩٧٣م.
- أصابع العروس (مجموعة قصصية) ١٩٨٩م.
- لبنان والوجه الضبابي (قصائد نثرية) ١٩٨٩م.

- الحقيبة الأدبية.
- قراطيس متناثرة.
- قراطيس مبعثرة ١٩٨٥م.
- دراسات كويتية ١٩٦٩م.
- ساحات فكرية١٩٧٧م.
- ٢٥ فبراير (ديوان شعر) ١٩٨٢م.
- ذكريات نقعه ابن خميس ١٩٨٧م.
- أزهار الخير ١٩٨٧م.
- فرحان راشد الفرحان والقصة القصيرة (دراسة تحليلية) ١٩٩١م.
- سعاد الصباح الشعر والشاعرة ١٩٩٢م.
- كاظمة وأخواتها (ديوان شعر) ١٩٩٥م.

الفهرس

إصدارات سلسلة (تراثنا)

١- دراسات أندلسية، تأليف: أ. فاضل خلف، الطبعة الأولى ٢٠١٢م.

٢- من العامية الفصيحة في اللهجة الكويتية، خالد سالم محمد، الطبعة الأولى، الكويت ٢٠١٢م.

٣- محمد روحي الخالدي (١٨٦٤-١٩١٣) ونظرته للإصلاحات العثمانية، تأليف: طلال جمعان سعد الجويعد، الطبعة الأولى ٢٠١٢م.

٤- رحلة أبي الحسن الهروي، الإِشَارَاتُ إِلَى مَعْرِفَةِ الزِّيَارَاتِ ٦١١هـ / ١٢١٥م، أبو الحسن عَلِيُّ بنُ أَبِي بَكْرٍ الهَرَوِيُّ، تحقيق د. نواف عبدالعزيز الجحمة، الطبعة الأولى ٢٠١٢م.

تم بحمده تعالى

تراثنا (١)

تراثنا ... تأتي هذه السلسـلة الأدبية لتخدم التراث العربي العريق من خـلال طباعة مؤلفـات متميزة لأسـاتذة مبدعين من أعضـاء رابطة الأدبـاء الكويتيـين الذيـن كتبوا عن جوانـب متنوعة من هـذا الارث العظيم.

حيث نصت المادة الثانية من لائحة رابطة الأدباء الكويتيين على رعاية الحريـة الفكرية والنهضـة الأدبية فـي الكويت و الاتجـاه بالأدب بما يخـدم المجتمع العربي و الحث على الانتـاج النفيس في مجال الأدب والثقافة وتشجيع البحوث والدراسات الأدبية والفكرية وصيانة التراث العربي .

حيث أبرم الأمين العام السابق لرابطة الأدباء الكويتيين د. عادل العبد المغنـي اتفاقية تعاون مع مركز الاديب فهد بن محمد بن نايف الدبوس للـتراث الأدبي بتاريخ ٧ يناير ٢٠١٢م لطباعة سلسـلة من الإصـدارات الأدبية تحمل عنوان " تراثنا ".

وقد حرص الطرفان على العناية في اختيار المواضـيع المهمة التي تثري القارئ العربي مؤملين أن تكون هذه السلسـلة اضافة للمكتبة العربية. ويأتـي هـذا الاصـدار الذي بـين يديك - عزيـزي القـارئ - من هذه السلسـلة ليسـلط الضـوء على جوانب مضـيئة من تاريخنا الأدبي العريق ، وأن تكون " تراثنا " نبراسا مضيئاً في الأدب والتراث العربي.

رئيس لجنة التأليف والنشر

أ. طلال سعد الرميضي

ص. ب : 34043 العديلية - الرمز البريدي 73251 - الكويت

هاتف : 22518282 / 25106022 - فاكس : 22510603

twitter@rabetaq8

http://alrabeta.net